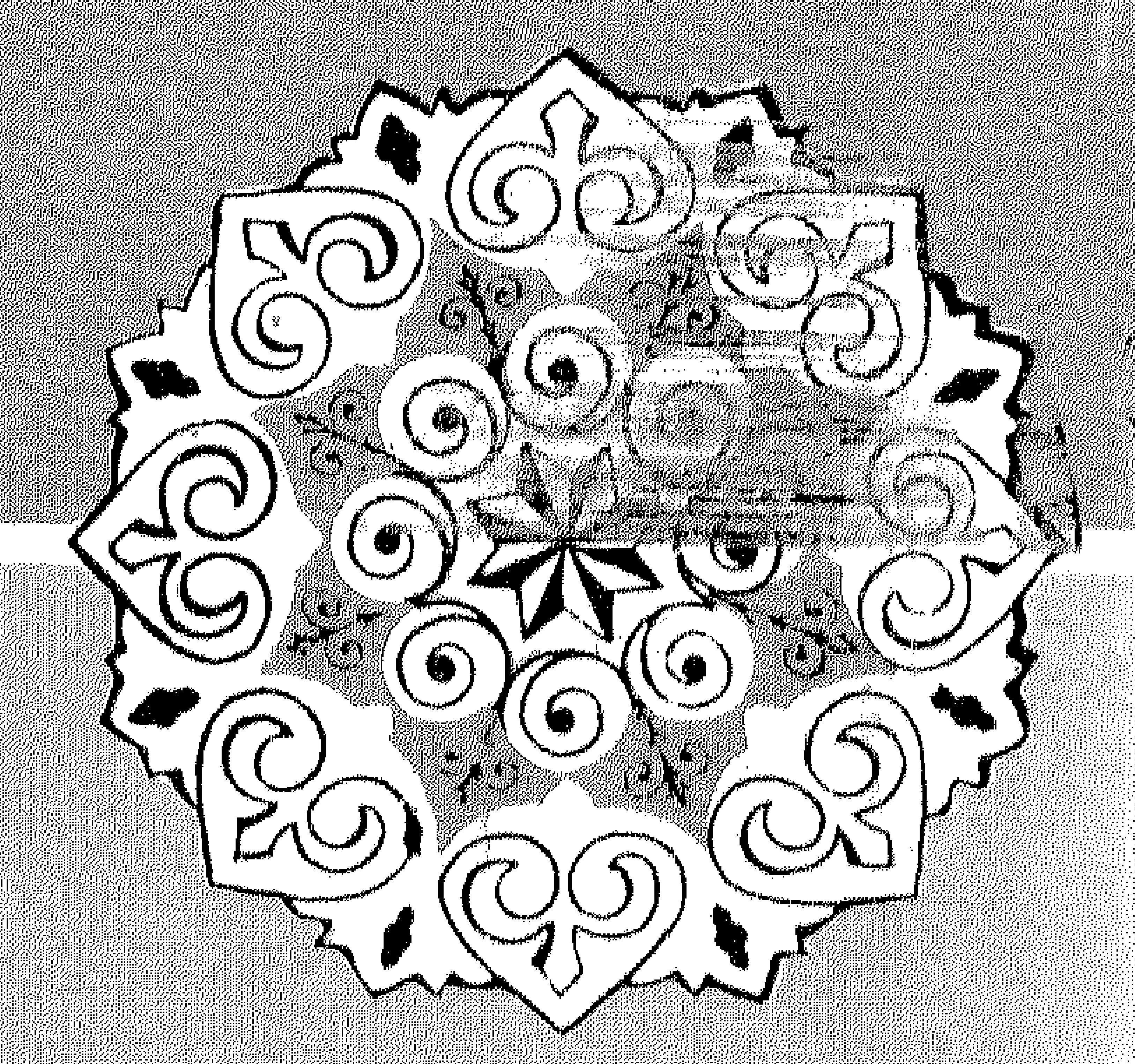
جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

دراسات إسلامية
سلسلة تصدر
فى منتصف كل شهر عربى

العدد [١٢]



المسلمون فى القوقاز

للدكتور

إبراهيم العدوى

القاهرة
١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

اهداءات ٢٠٠١

الدكتور / القطب محمد طبلية

القاهرة

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
مركز السيرة والسنة

دراسات إسلامية
سلسلة تصدر
فى منتصف كل شهر عربى

العدد [١٢]

المسلمون فى القوقاز

للدكتور
إبراهيم العدوى

١٥ رجب ١٤١٧ هـ - نوفمبر ١٩٩٦ م

يشرف على إصدارها

الدكتور محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور / محمد إبراهيم الفيومى

أمين عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله الذى يتم نوره ولو كره الكافرون ، وهو سبحانه يحق الحق بكلماته ويمحق الباطل بقدرته . والصلاة والسلام على نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى أرسله الله بشيرا ونذيرا إلى الناس كافة ، فأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ، ودعا العباد إلى عبادة إله واحد بيده مقاليد السموات والأرض .. اللهم صلى عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، ومن سلك طريقهم ونهج نهجهم إلى يوم الدين ... وبعد

فإيماء إلى رسالة الإسلام السامية التى حملها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ويبثها إلى المسلمين فى داخل مصر وخارجها .. وإلى ما يقوم به المجلس من اصدار سلسلة من الكتب الإسلامية التى توضح للمؤمنين معالم طريق الإيمان والفداء ، ورغبة فى تلبية نداءات القراء وشغفهم إلى قراءة تاريخهم المجيد ، ومعرفة دينهم وعقيدتهم ومجتمعهم الإسلامى الذى ينتشر يوما بعد يوم فى كل ربوع الدنيا من أقصاها إلى أقصاها .

لذلك يسرنا أن نقدم للقارىء المسلم دراسة وافية عن المسلمين فى بلاد القوقاز ودول الكومنولث من بدء دخول الإسلام فى هذه البقعة فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى اليوم ، والأحداث التى خاضتها هذه البلاد ، بارزين دور

الأبطال المسلمين الذين كافحوا وناضلوا وجاهدوا فى سبيل حريتهم ورفع راية الإسلام على مدى أزمان طويلة ، وتلك الدراسة بعنوان « المسلمون فى القوقاز »للأستاذ الدكتور / إبراهيم أحمد العدوى .

فتحدث عن إشراق شمس الإسلام على بلاد القوقاز فى عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وعن الإغارات التى توالت على هذه البلاد من قبل أعداء الإسلام ، وتحدث عن الطرق الصوفية التى ظهرت آنذاك وما كان لها من آثار طيبة فى مساندة هؤلاء المكافحين ، وتناول بالتفصيل القواد المسلمين العظام الذين قادوا مسيرة الجهاد .. ومن أبرزهم :

الشيخ منصور - الملا غازى - الإمام شامل - دوداييف .

وتناول الكتاب كذلك الطغيان الروسى المتكرر على بلاد القوقاز ، وعن البيان الذى أصدره جوزيف ستالين وفلادمير ، وما كان لهذا البيان من مكر وخديعة وتغرير بالمسلمين .. وتناول الحديث فى هذه الرسالة جهاد المسلمين وصحوتهم وفدائيتهم إلى اليوم وخاصة فى الشيشان .

وإنا لنرجو أن ينفع به المسلمين فى كل مكان ، والله من وراء القصد .

أ . د . محمد إبراهيم الفيومى

أمين عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تشهد الصحوة الإسلامية المعاصرة تجديد شباب شعوب عديدة من أمة الإسلام ، أخذت تستعيد سالف حيويتها ورسالتها فى خدمة الإسلام والمسلمين واستئناف مسيرتها كذلك فى سبيل بناء الحضارة الإنسانية . ويشارك فى هذه الصحوة الإسلامية مجموعة الشعوب الإسلامية التى خضعت منذ مطالع العصر الحديث لطغيان روسيا ، بشطريها القيصرى والشيوعى ، وهو الطغيان الذى بلغت أساليبه درجة من الوحشية والقسوة استهدفت اجتثاث تلك الشعوب من جذورها ، وذلك إلى جانب الأساليب الروسية القاتلة التى اتجهت على امتداد فترة طويلة إلى تفتيت وحدة تلك الشعوب الإسلامية ، والعمل على طمس هويتها وكيانها بفرض ستار من النسيان الرهيب حولها ، وذلك مما يكفل عزلها عن باقى أبناء الأمة الإسلامية وانتزاع أراضيها من عالم الإسلام .

غير أن الجذور الإسلامية لهذه الشعوب كانت تضرب فى أعماق بعيدة من الزمان والمكان ، جغرافيا

وتاريخيا ، بحيث عجزت أساليب الروس القاسية عن النيل من المقومات الإسلامية لتلك الشعوب ، ولاسيما ما قام به الروس بصفة خاصة من غلق للمساجد وغيرها من المدارس الدينية ، إذ جعلت تلك الشعوب الإسلامية من بيوتها أيام الاستعمار الروسى مساجد تتابع فيها أداء فروض الإسلام وتعاليمه ، وقاعدة للانطلاق مرة أخرى نحو استئناف الحياة الإسلامية الأصيلة .

ويتولى ريادة وقيادة هذه الصحوة الإسلامية التى تجاهد للخروج من دائرة النسيان المظلم ، الذى فرضته روسيا ، إلى نور الحرية والحياة المعاصرة مجموعة الشعوب الإسلامية من أهل القوقاز ، ذلك الإقليم الحيوى من دار الإسلام ، والحافظ للركائز الإسلامية ومعالمها الخالدة ، إذ أخذت تلك الشعوب القوقازية المسلمة تعمل لاسترداد كيانها ، ودعم يقظتها المعاصرة ، وهى ترتل القرآن الكريم ، وتردد الأناشيد الدينية القويمة ، وتحمل السلاح ، جاعلة من أدوات القتال " مفاتيح الجنة " ، تأكيدا على أن السبق إلى الشهادة هو السبيل للحفاظ على دينهم الإسلامى وإعلاء كلمته .

ويتناول الفصل الأول من الدراسة : " شروق شمس الإسلام على بلاد القوقاز " . مع تمهيد

للخصائص الجغرافية لأقليم القوقاز وشعوبه ، وهى الخصائص التى ساعدت على سرعة انتشار الإسلام ، منذ أيامه الأولى ، فى تلك البلاد واستقرار أوتاده كذلك إلى اليوم .

ويتتبع الفصل الثانى " الطغيان الروسى على بلاد القوقاز " منذ مطالع العصر الحديث ، وهو الطغيان الذى وقع على يد كل من روسيا القيصرية وروسيا الشيوعية على حد سواء ، حيث تشابهت أساليب كل منهما فى النيل من المسلمين فى بلاد القوقاز ، وذلك بالرغم من اختلاف معالم السلطة والحكم الروسى .

ويعالج الفصل الثالث " الخريطة السياسية لبلاد القوقاز " وذلك لبيان معالمها وخطوطها التى يطالعها الناظر إلى أحوال المسلمين اليوم فى بلاد القوقاز .

وتنتهى الدراسة بالفصل الرابع عن " الصحوة الإسلامية المعاصرة فى بلاد القوقاز " ، وتتبع جذورها ومراحلها حتى الوقت الحاضر ، وذلك على نحو ما يضطلع به أهل " الشيشان " فى ثورتهم فى الوقت الحاضر ضد أطماع روسيا الاتحادية .

وتوضح الدراسة بهذه الفصول الأربعة أن بلاد القوقاز جزء لا يتجزأ من " دار الإسلام " ، وأن مسلمى تلك البلاد قاسموا إخوانهم فى سائر أرجاء

العالم الإسلامى السراء والضراء ، وهو الأمر الذى يؤكد وحدة عالم الإسلام وقواعدها الراسخة الأوتاد ، وأن الصحوة الإسلامية المعاصرة لمسلمى القوقاز التى تستند إلى الدين الإسلامى الحنيف وتعاليمه الغراء ، تمثل يدا قوية فتية قادرة على أن تعيد لأمة الإسلام سالف عزها وأن تستأنف فى عزم ومضاء رسالتها الحضارية الخالدة لسعادة الإنسانية ورفاهيتها .

أ . د . إبراهيم أحمد العدوى

الفصل الأول

شمس الإسلام

تشرق على بلادالقوقاز

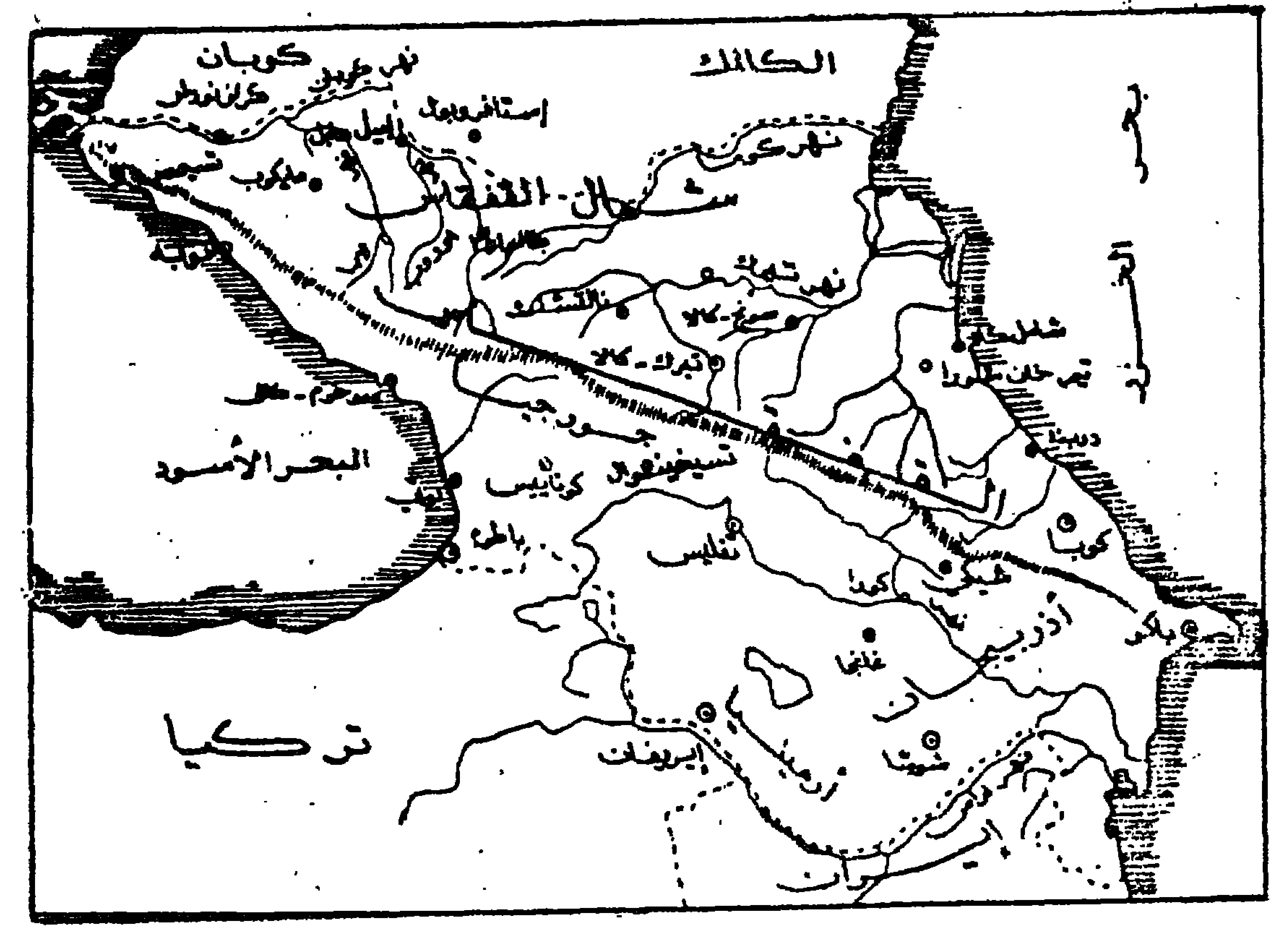
(أ) : إقليم القوقاز (المكان والسكان)

يطلق المؤرخون والجغرافيون المسلمون على إقليم القوقاز اسم " بلاد القفقاس " ، و " القبجاق " ، و " بلاد القبق " وظهر هذا الاسم منذ أيام اليونان ، على عهد هيرودوت ، أبو التاريخ ، وذلك للدلالة على سلسلة الجبال الشامخة التى تسير على امتداد ستمائة وخمسين ميلا بين البحر الأسود وبحر قزوين ، من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى . وتعتبر هذه المرتفعات العظمى وخط تقسيم المياه بها الحد الفاصل بين قارتين من أعظم قارات العالم القديم حيوية ونشاطا بشريا واقتصاديا وحضاريا ، وهما قارتى آسيا وأوربا .

وتنقسم هذه السلسلة الجبلية جغرافيا إلى قسمين رئيسيين : أحدهما هو مرتفعات القوقاز العظمى ، أو ما يعرف باسم القوقاز القريب ، وتمتد من شبه " جزيرة تامان " التى تقع بين البحر الأسود وامتداده إلى شمال بحر آزوف ، ثم تسير فى اتجاه جنوبى شرقى إلى شبه جزيرة " اسفرون " الملحقة ببحر قزوين . وتنحدر السفوح الشمالية لتلك السلسلة الجلية فى رفق إلى منخفض يضم قسمين :

أولهما : المنخفض الذى يقع إلى الشمال الغربى من تلك المرتفعات ، ويجرى فيه " نهر كوبان " ، الذى يصب فى البحر الأسود .

وثانيهما : المنخفض الذى يقع فى الشمال ويشغله نهر " كوما " ، الذى يصب فى بحر قزوين ، ويقع إلى الشمال الشرقى من تلك المرتفعات أيضا المنخفض الذى تتكون منه " دلتا الفولجا " ، والأجزاء الجنوبية من هذا المنخفض يجرى فيها " نهر تيرك " الذى يصب فى بحر قزوين . أما السفوح الجنوبية لمرتفعات القوقاز العظمى فهى شديدة الوعورة ، وتنتهى غربا بمنخفض " كولخيدا " المطل على البحر الأسود ، ويجرى فيه نهرا " ريونى وإنجورى " حيث يصبان فى البحر الأسود . ثم تنتهى تلك السفوح الجنوبية بمنخفض فى الجنوب الشرقى يشغله " نهر كورا " وروافده " أراكس " وأنهار هذا القسم تفيض حوالى ستة أشهر فى فصل الدفء .



خريطة توضح جبال القوقاز

والقسم الآخر من مرتفعات القوقاز هو الذى يضم مرتفعات القوقاز الصغرى ، المعروفة باسم " عبر القوقاز - القوقاز البعيد " . ويعرف الامتداد الشرقى للقوقاز الصغرى فيما بين منخفض " كولخيدا " فى الغرب ، ومنخفض كورا فى الشرق باسم " مرتفعات طاليش " . ويجرى إلى شمال تلك المرتفعات نهر " كورا " ، وروافده نهر " أراكس " الذى يمتد إلى جنوبها ، بحيث يحتضن هذان النهران الامتداد المحدب لجبال القوقاز الصغرى وأنهار هذه المرتفعات تفيض فى فصل الربيع .

وتقسم السلسلة الجبلية إقليم القوقاز إلى منطقتين جغرافيتين هما : القوقاز الشمالى ، ويقع ضمن قارة أوروبا ، والقوقاز الجنوبى ويقع فى أقصى الغرب من قارة آسيا ويضم هذان القسمان شعوبا وأجناسا عديدة جعلت من بلاد القوقاز " متحفا للأجناس واللغات " ذلك أن إقليم القوقاز كان ممرا رئيسيا عبر العصور للتبادل البشرى والاقتصادى والحضارى بين آسيا وأوربا ، فضلا عما صاحب هذا التبادل أحيانا من صراعات بين القوى العظمى التى حفلت بها هاتان القارتان .

ويشتمل شمال القوقاز على الشعوب التالية :

أولا : الشراكسة : ومعنى كلمة " جركس " الجندى البارع ، وهم ينزلون فى الشمال الغربى والأوسط من القوقاز الشمالى ، وينقسمون إلى القوميات التالية :

١ - الأديجية (الأديغية) ، وهو الاسم القومى للشراكسة .

٢ - القبارطاى .

٣ - الأباظة .

٤ - القرة شاى (القرتشاى) .
٥ - البلقار (البلكار) .

ثانيا : الشيشان ، وينزلون فى وسط القوقاز الشمالى الشرقى .

ثالثا : الأنجوش : وينزلون وسط القوقاز الشمالى .

رابعا: الأوسيتيين ، وينزلون وسط القوقاز الشمالى .

خامسا:الداغستان ،وتعنى كلمة الداغستان " بلاد الجبال " ، وهم ينزلون فى أقصى الشمال الشرقى لشمال القوقـاز .

ويشتمل جنوب القوقاز على الشعوب التالية :

أولا : الكرج - الجورجيون - (وهم سكان كرجستان أو جورجيا) وينزلون فى وسط القوقاز الجنوبى .

ثانيا:الآذربيجان ، وينزلون فى الجنوب الشرقى للقوقاز.

ثالثـا: الأرمن (أرمينيا) وينزلون فى الجنوب الغربى للقوقاز ، وتمتد مضاربهم من جبال " قبق " أى القوقاز إلى حدود آسيا الصغرى ، وبلاد الجزيرة بشمال العراق .

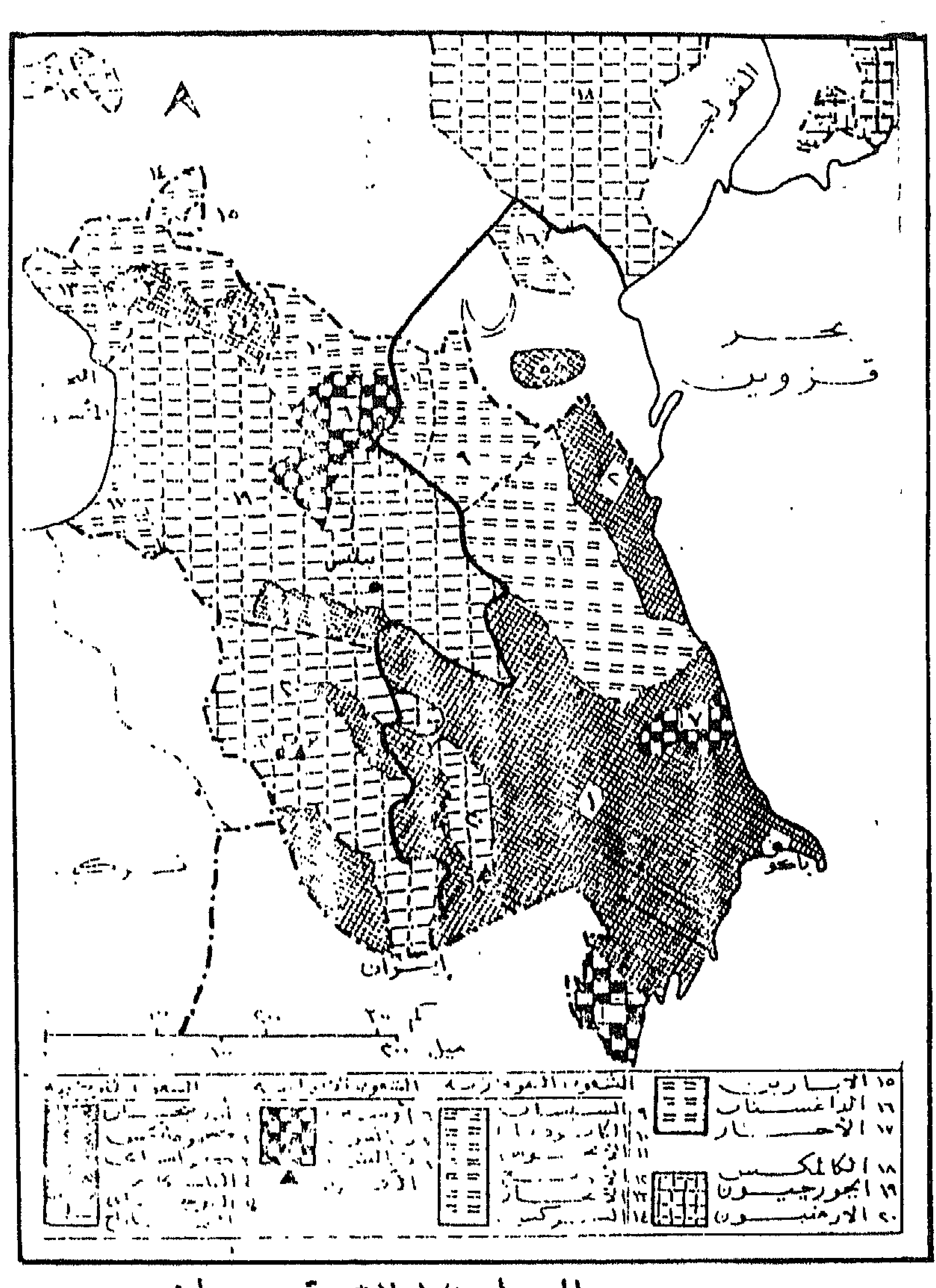
رابعا : الأدجار : وهم سكان جمهورية أدجاريا التى تقع فى الجزء الجنوبى الغربى لجورجيا .

(ب) انتشار الإسلام فى بلاد القوقاز

أخذت شمس الإسلام تشرق على اقليم القوقاز منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وذلك حين قام بالفتوحات الإسلامية

الكبرى ، خارج الجزيرة العربية ، لنشر الإسلام ، وبناء دار الإسلام . إذ بعث واليه على الكوفة ، وهو المغيرة بن شعبة سنة ١٨ للهجرة / ٦٣٨م الصحابى الجليل حذيفة بن اليمان ، صاحب سر رسول الله إلى اذربيجان بشمال فارس ، وهى المنطقة التى يدخل القسم الشمالى منها ، المعروف باسم " أران " (وهى حاليا أذربيجان السوفيتية) فى النطاق الجغرافى لإقليم القوقاز الجنوبى . ووصف الجغرافى المسلم ياقوت هذا الترابط الجغرافى بين أذربيجان وأران من بلاد القوقاز قائلا : " أذربيجان والنسبة إليها أذرى أو أذربى ، وهى صقع جليل ومملكة عظيمة ، الغالب عليها الجبال ، وفيه قلاع كثيرة وخيرات واسعة وفوائد جمة ، ما رأيت ناحية أكثر بساتينا منه ، ولا أغزر مياها وعيونا ... لا يحتاج السائر فيها إلى حمل إناء للماء لأن المياه جارية تحت أقدامه أين توجه ، وهو ماء بارد عذب صحيح ، وأهلها صبح الوجوه حمرها رقاق البشرة ، ولهم لغة يقال لها الآذرية .... وفى أهلها لين وحسن معاملة " ووصف ياقوت أران - بالفتح وتشديد الراء - قائلا : " ولاية واسعة وبلاد كثيرة ... وبين أذربيجان وأران نهر يقال له الرس ، كل ما جاوره من ناحية المغرب والشمال فهو من أران ، وما كان جهة المشرق (والجنوب) فهو من أذربيجان " .

وفتح القائد حذيفة بن اليمان مدينة أردبيل ، عاصمة أذربيجان ، التى غدت مركزا لنشر الإسلام فى بلاد القوقاز ، وقاعدة لتعريف أهالى تلك البلاد بتعاليم هذا الدين الحنيف ،



المسلمون في القوقاز

وما يحمله للإنسانية من فكر رفيع ، وقواعد سامية فى ميدان المعاملات . ذلك أن حذيفة بادر إلى تلبية مطالب حاكم أردبيل بعقد صلح يكفل لبلاده الأمن فى ظل الحكم الإسلامى وتأكد هذا الأمن الإسلامى على عهد خليفة حذيفة بن اليمان ، وهو عتبة ابن فرقد السلمى ، الذى عهد إليه الخليفة عمر بن الخطاب بالولاية على أذربيجان فقد منح الوالى المسلم الجديد أهل أذربيجان أمانا هذا نصه :

« هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ، ليس على صبى ولا امرأة ولا زمن (شيخ طاعن أو مريض بمرض مزمن) ليس فى يديه من الدنيا (أى إعفاء لغير القادرين على دفع الجزية) لهم ذلك ، ولمن سكن معهم . وعليهم قرى (أى ضيافة) ، ومن حسر منهم فى سنة وضع عنه جزاء تلك السنة (أى ترفع الجزية عمن لا يستطيع دفعها فى عام استحقاقها) . ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك . ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه . وكتب جندب وشهد بكير بن عبد الله الليثى وسماك بن خرشة الأنصارى . وكتب فى ثمانى عشرة للهجرة (٦٣٨م) .

وصاحب عهد الأمان الإسلامى لأذربيجان ما اشتهر به الخليفة عمر بن الخطاب من إقرار للعدل وحرص على دعم المساواة بين كافة المسلمين ، ذلك أن عتبة بن فرقد السلمى ،

والى أذربيجان أرسل إلى الخليفة " سفطين من خبيص " ، وهو طعام لذيذ من طعام أهل أذربيجان ، فلما ذاق عمر منه قال : ان هذا لطيب : هل كل المسلمين أكل منه شبعة ، فقال رسول عتبة ابن فرقد : لا يا أمير المؤمنين ، إنما هو شيء خصك به ، فكتب إليه عمر يقول :

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عتبة بن فرقد . أما بعد فإنه ليس من كدك ولا كد أمك ولا كد أبيك إلا ما يشبع منه المسلمون فى رحالهم .

وصارت بلاد القوقاز بذلك ، قاب قوسين أو أدنى من عدالة الإسلام وشمسه المشرقة بالأمن والأمان ، ذلك أن الخليفة عمر ابن الخطاب أمر ، سنة ٢٢ للهجرة / ٦٤٢م ، قائده سراقة بن عمرو ، وكان يدعى ذا النور ، بفتح إقليم " الداغستان " بأرض أران (أذربيجا ، السوفيتية) ، وهى المنطقة التى تشغل الجزء الشمالى الشرقى للقوقاز . وأعد سراقة جيشا كبيرا ، جعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى ، وهو من الصحابة ، وكان يدعى أيضا ذا النور . وذلك على حين جعل على أحد جانبى الجيش القائد حذيفة بن سعيد الغفارى ، وعلى الجانب الآخر بكير بن عبد الله الليثى . وخرج سراقة بهذا الجيش قاصدا عاصمة الداغستان وهى مدينة " دربند " التى كان يطلق عليها لموقعها الاستراتيجى من جبال القوقاز اسم " باب الأبواب " وبادر حاكم هذه المدينة المعروف باسم " شهريار " إلى طلب الصلح من القائد المسلم ، على نحو ما قام به من قبل حاكم

أردبيل ، عاصمة أذربيجان ، وقال لسراقة : أنا منكم ويدى معكم والنصر لكم . وصار ترحيب أهل القوقاز بالإسلام سمة واضحة منذ الأيام الأولى لدخول الإسلام بلادهم ، وانضمامهم إلى دار الإسلام ، وهى فى المراحل الأولى من تكوينها ونمو أرجائها . وجعل سراقة عاصمته فى مدينة تفليس ، وهى عاصمة جورجيا الحاليـة .

وامتدت الفتوح الإسلامية إلى باقى بلاد القوقاز ، وذلك فى العام التالى لفتح الداغستان . فقد أرسل الخليفة عمر بن الخطاب ، سنة ١٩ للهجرة / ٦٣٩م قائده عياض بن غنم لفتح أرمينية وبلاد الكرج (جورجيا) ، التى كانت تتبع حكام أرمينية من الأسرة البكراطية . وسار الجيش الإسلامى من أذربيجان فى أربع فرق يقود اثنين منها حبيب بن مسلمة وسليمان بن ربيعة . واستمرت العمليات الحربية فى تلك الجهات من بلاد القوقاز حتى سنة ٢٤ للهجرة / ٦٤٤م ، أى إلى خلافة عثمان بن عفان . واستطاع حبيب بن مسلمة الاستيلاء على بلاد أرمينيا ، كما تمكن من الاستيلاء على مدينة تفليس عاصمة بلاد الكرج (جورجيا) وكان أهالى تلك الجهات من بلاد القوقاز تابعين لامبراطورية الروم البيزنطيين ، ويعانون من الاضطهاد الدينى الذى أنزله بهم سادتهم البيزنطيون إذ كان أهالى القوقاز يدينون بالمذهب المونوفيزيتى ، القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح ، على حين كان البيزنطيون من أتباع المذهب الملكانى ، القائل بأن للمسيح طبيعتين ، بشرية وإلاهية ، ومن

ثم رحب أولئك القوقازيون بالمسلمين ، حيث وجدوا فيهم المحررين لهم من ويلات الاضطهاد الدينى الذى حل بهم ، كما وجدوا فى عدالة الإسلام وسمو تعاليمه أسباب العيش الكريم . إذ سمح المسلمون للقوقازيين بمتابعة شعائرهم الدينية بكل حرية ، والاشتراك فى إدارة بلادهم نفسها .

وازدادت دعائم الإسلام قوة فى بلاد القوقاز منذ ذلك الوقت المبكر من القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى ، ذلك أن الدولة الإسلامية وجهت عنايتها إلى تلك النواحى ، حيث أدركت أنها تمثل وحدة جغرافية لها تقاليدها المحلية الجديرة بالرعاية والعناية . فجمعت السلطات الإسلامية ، منذ عصر الخلافة الأموية ، بين " أران " (أذربيجان السوفيتية) وأرمينيا وبلاد الكرج (جورجيا) ، وجعلت لها إدارة واحدة ترعى شئونها ، وعلى قاعدة اشراك أهالى البلاد فى إدارة تلك الشئون ومتطلباتها . ولذا وقف أهالى القوقاز بكل صدق وإخلاص إلى جانب السلطات الإسلامية يساندونها ضد كل عدوان يقع على بلادهم . التى آمنوا بأنها صارت جزءا لا يتجزأ من دار الإسلام .

وتجلت طلائع هذه المساندة التى قام بها أهالى القوقاز للسلطات الإسلامية منذ عهد الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان ، وذلك حين قام أحد أباطرة الروم وهو " قسطنطين " بالعمل على انتزاع أرمينيا من بلاد القوقاز من أيدى السلطات الأموية ، إذ حين سارت الجيوش الإسلامية لمواجهة الروم البيزنطيين وصدهم عن أرمينيا ، انضم إليها الأمراء المحليون

من أهالى أرمينيا ، وعلى رأسهم كبير أولئك الأمراء واسمه تيودور ، وذلك بالرغم من بقائهم آنذاك على المسيحية . إذ وجد أهالى القوقاز على اختلاف اتجاهاتهم - منذ تلك الفترة المبكرة - من الحكم الإسلامى لبلادهم الحصن الحصين الذى يكفل لهم الحرية الدينية ، مع توفير كافة أسباب العيش الكريم . وبذلك تمكنت تلك القوات الإسلامية الأرمينية من انزال هزيمة فادحة بقوات الروم البيزنطيين ، واضطرتهم إلى الإنسحاب من بلاد القوقاز .

وأقام معاوية بن أبى سفيان الأمير تيودور حاكما من قبل السلطات الإسلامية على أرمينيا ، وهو التقليد الذى اتبعه خلفاء معاوية حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وهو الأمر الذى ساعد على سرعة انتشار الإسلام بين قبائل بلاد القوقاز المعروفة باسم " اللزكى " ، ومن بينها قبيلة الأندى ، التى اعتنقت الإسلام واللغة العربية فى سرعة وجيزة ، وتابعت الدولة العباسية سياسة الرعاية والتكريم لأهالى القوقاز والسماح لهم بإدارة بلادهم ، ومن ذلك ما قام به الخليفة المتوكل العباسى حين نصب أحد أمراء أرمينيا ، وهو أشوط البكراطرى - حكم تلك البلاد سنة ٢٤٧ للهجرة / ٨٦١م ، وقد كفل هذا الأمر محبة أهالى القوقاز للإسلام ، والاقبال بالتالى على اعتناقه ، والعمل بتعاليمه الغراء . وضرب الخلفاء العباسيون الأمثلة العملية لأهالى القوقاز على احترام حريتهم ، وتأمينهم ضد أى عدوان يقع عليهم ، حتى لو كان من جانب

عمال الدولة الإسلامية نفسها . ومن ذلك أن الخليفة العباسى المعتمد وقف إلى جانب أمير أرمينيا البكراطى ضد عدوان الوالى يوسف بن أبى الساج الشيبانى ، وأتاح بالتالى لأهل تلك النواحى من بلاد القوقاز أن يدركوا عن طريق النماذج العملية الصادقة عدالة الإسلام الباهرة ، وشدة تمسك السلطات الإسلامية بتطبيق تلك العدالة ومجرياتها .

وغدت بلاد القوقاز ، منذ أواخر العصر العباسى ، على صلة وثيقة بأحداث دار الإسلام ، وتستمد من تلك الأحداث ما يقوى دعائم هذا الدين الحنيف بين أهاليها وتمثلت تلك الأحداث فى ظهور الأتراك السلاجقة والمغول ، ثم قيام الدولتين الصفوية والعثمانية ، وأخيرا نشاط الفرق الصوفية وتجلى تأثير تلك القوى الإسلامية المتتالية على بلاد القوقاز فيما يلى :

١ - الأتراك السلاجقة ، الذين ظهروا على مسرح الأحداث فى الدولة العباسية منذ القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، حيث دخلوا العراق ، وسيطروا على شئون الخلافة العباسية فى بغداد . فكان أولئك السلاجقة من المتحمسين لاحياء الجهاد الإسلامى ضد دولة الروم البيزنطيين التى دأبت على العدوان على دار الإسلام ، إذ امتدت إغارات الروم البيزنطيين إلى العديد من البلاد الإسلامية ، ومن بينها بلاد الشام والعراق ، وكذلك أرمينيا من بلاد القوقاز . وجاء ظهور الأتراك السلاجقة فى هذا الوقت عاملا هاما فى الدفاع عن دار الإسلام ، ليس فى البلاد التابعة للخلافة العباسية فى بغداد

فحسب . وانما فى بلاد القوقاز كذلك ، إذ دأبت سلطات دولة الروم البيزنطيين على تشجيع بعض أمراء بلاد القوقاز القريبة من أراضيها بآسيا الصغرى ، وبخاصة فى أرمينيا على الخروج عن طاعة الدولة العباسية ، وذلك أملا فى الاستيلاء على بعض نواحى بلاد القوقاز .

وقد تمكن السلاجقة من التصدى لدولة الروم البيزنطيين ، حيث أنزل السلطان السلجوقى ألب أرسلان هزيمة فادحة بأمبراطور الروم وهو رومانوس فى معركة ملاذكرت الحاسمة بآسيا الصغرى سنة ٤٥٦ للهجرة/١٠٦٤م ، وصار سلطان السلاجقة قويا فى آسيا الصغرى ، وهو الأمر الذى أتاح لهم أن يبسطوا نفوذهم أيضا على ما جاورهم من أذربيجان (أران) والكرج (جورجيا) وأرمينيا ، وفتح نوافذ إسلامية واسعة على تلك الأرجاء الهامة من بلاد القوقاز وأخذ الإسلام ينتشر بقوة بين شعوب القوقاز نتيجة حماسة السلاجقة لهذا الدين وغيرتهم عليه وعلى أهله ، وتجلى ذلك فى امتداد الإسلام إلى المناطق الجبلية من الداغستان ، وبخاصة فى وسط وشمال تلك البلاد ، وظهور مراكز كبرى للإسلام بها ، تولت تدريب الدعاة إلى هذا الدين ، وتهيئة كافة الأسباب أمامهم للانطلاق فى سائر أرجاء بلاد القوقاز .

٢ - المغول ، ولقيت بلاد القوقاز دفعة قوية من حيث انتشار الإسلام بها حين ظهر المغول على مسرح الأحداث فى الدولة العباسية فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى .

وكانت دولة المغول قد تأسست على يد " جنكيزخان " (٦٣٥.٥٩٨للهجرة/١٣٠١-١٢٢٧م) ومعه أولاده الأربعة الذين بعث بهم إلى شتى الجهات من أرجاء آسيا وأوربا ، حتى صارت دولة المغول تمتد من القوقاز غربا إلى الصين شرقا .

وظهر ميل نفر من قادة المغول إلى الإسلام فى هذه الفترة الأولى من فتوحات جنكيزخان نفسه ، الذى اشتهر بتدميره الرهيب للقوى الإسلامية وغيرها من النواحى التى اجتاحتها جحافله ، وكان من أولئك القادة المغول الذين مالوا إلى الإسلام أحد أبناء جنكيز خان نفسه واسمه " جوجى " ، صاحب الفضل فى ضم بلاد القوقاز إلى دولة المغول ، حيث نزلت بها قواته من العشائر المغولية ، التى صار يطلق عليها اسم " مغول القبجاق " أى مغول القوقاز ، نسبة إلى بلاد القوقاز الشاسعة التى خضعت لسلطانهم . وقد اشتهر " مغول القبجاق " باسم "القبيلة الذهبية " ، والتى انتشرت مضاربها فى كل الأراضى الواقعة اليوم فى روسيا ، إبتداء من موسكو وانتهاء بفرغانة ، مرورا بجبال القوقاز وسهوب نهر الفولجا وجبال الأورال وقازخستان وفيافى سيبيريا وشواطىء البحر الأسود ومصب نهر الدانوب والدنيبر .

وعبر جوجى عن ميله للإسلام فى حياة والده جنكيز خان نفسه ، حيث قال : إن والده جنكيز خان قد فقد عقله ، فكيف يقتل مثل هذا الخلق ويخرب مثل هذا العدد من البلاد ... وأن الصواب هو أن يقتل والده أثناء الصيد ويعقد هو صلحا مع

المسلمين " . وقد لقى جوجى حتفه بالسم الذى دسه له والده حين علم برأى ابنه عنه . غير أن وفاة جوجى لم تكن لتؤثر على مسيرة الإسلام وبخاصة فى بلاد القوقاز ، إذ لم يلبث المغول أن أخذوا يتحولون إلى الإسلام حين تولى بركة خان بن جوجى بن جنكيزخان سنة ٦٥٤ للهجرة/١٢٥٦م حكم " القبيلة الذهبية " التى كانت تكون احدى الدول الأربع التى انقسمت إليها دولة المغول الكبرى خلال القرن الثالث عشر الميلادى ، وصارت تعرف باسم " دولة خانات القبجان " ، أى دولة " خانات القوقاز ". إذ اعتنق هذا الخان المغولى الإسلام منذ نعومة أظفاره ، لأن والده عهد بتربيته إلى أحد علماء المسلمين ، وهو الأمر الذى جعل بركة خان يشب على الورع والتقى وشدة التمسك بالدين الإسلامى ، مع الحرص على دعوة بنى جلدته إلى اعتناق هذا الدين الحنيف ، وذلك على امتداد حكمه الذى استمر من سنة٦٥٤للهجرة إلى سنة ٦٦٥للهجرة/١٢٥٦-١٢٦٧م . وغدت عاصمة دولة مغول القبيلة الذهبية ، وكذلك المدن العظمى بتلك الدولة ، مراكز اشعاع وجذب أيضا للإسلام فى بلاد القوقاز .

وسجل هذا الطابع الإسلامى المبكر لبلاد القوقاز الرحالة المغربى ابن بطوطة ، الذى تجول فى " دولة خانات القبجاق " ، وذلك حين وصل فى رحلته سنة٧٣٤للهجرة/١٣٣٤م إلى بلاد القرم ، التابعة لمغول القفجاق . وكانت " دولة خانات القفجاق هذه ، وهى أقصى دول خانات المغول غربا تنقسم قسمين يجمعهما سلطان واحد ، وهما : القطيع الأزرق والقطيع

الأبيض . وكانت السيادة والقوة فى القطيع الأزرق الذى كان يسود البلاد التى بين المجريين الأدنين لنهرى الدون والفولجا ، وكان سلطانهم يشمل نواحى كييف والقوقاز ، ويمتد إلى بحر آرال ، أى الأراضى الممتدة شمال بحر آرال وبحر قزوين والبحر الأسود ، والممتدة شمالا إلى كييف وجنوبا حتى تشمل بلاد القوقاز كلها ، وهو امتداد يدل على أنها كانت دولة إسلامية من الدول الكبرى التى تحكم مساحات واسعة من الأرض .

ومسألة القطعان هذه ما بين ذهبى وأسود وأزرق تسمية رمزية اتخذتها فروع القبائل المغولية نسبة إلى لون فراء قطعان الغنم التى كانت ترعاها وتتخذ منه الصوف الذى تصنع منه خيامها ، فهذه خيام بيضاء ، وتلك ذات خيام زرقاء ، وهذه صفراء ، وذلك هو المراد بالذهبى .

وكانت قبائل القطيع الأزرق التى نزل ابن بطوطة أرضها مسلمة فى ذلك الوقت ، وإن كانت غالبية سكان البلاد التى تسيطر عليها نصرانية . وذكر ابن بطوطة نماذج عملية من مشاهداته تبين عدالة مغول القفجاق وتمسكهم بروح الإسلام العالية القائمة على التاسمح الدينى فقال عن مشاهداته فى إحدى المدن : " ورأيت كنيسة فقصدتها ، فوجدت بها راهبا ، ورأيت فى أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربى عليه عمامة ، متقلدا سيفا ، وبيده رمح ، وبين يديه سراج يوقد ، فقلت للراهب : ما هذه الصورة فقال : هذه صورة النبى على !! فعجبت من قوله "

وأبدى ابن بطوطة أيضا دهشته من سماع أصوات نواقيس النصارى ، وقال إنه أراد أن يسكت تلك النواقيس ، وأنه طلب إلى أصحابه أن يصعدوا إلى صومعة النواقيس ، أى برج الأجراس ، ويقرأوا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ، وكاد الأمر يؤدى إلى غضب النصارى ، وهم أصحاب البلد ، لولا أن قاضى المسلمين أسرع إلى ابن بطوطة وأصحابه وصرفهم عما كانوا يريدونه .

وكان يحكم خانية مغول القفجاق - فى الوقت الذى دخل فيه ابن بطوطة أراضيها -السلطان محمد أوزبك الذى حكم بين سنتى ١٣١٢م و ١٣٤٠م . وقد استقبل عامل هذا السلطان على القرم وهو " تلكتمور " ابن بطوطة بالترحاب ، واصطحبه معه إلى زيارة السلطان فى عاصمته " السرا " على نهر الفولجا ، وهى صحبة شاهد فيها ابن بطوطة عن كثب قوة الإسلام ومظاهره ببلاد القوقاز ، وذلك فضلا عن وقوفه على الكثير من مظاهر الحياة فى تلك البلاد الإسلامية ، وقوة اتصالها بسائر أراضى دار الإسلام ، وبخاصة فى مصر وبلاد الهند .

ووصف ابن بطوطة رحلته قائلا : إنه نزل بأرض تسمى " دشت قفجق ، ودشت " - كما يقول - بلسان الترك هو الصحراء . فأوضح ابن بطوطة أن " صحراء القوقاز " خضرة نضرة ، لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب : أى أنها منطقة سهوب وحشائش طويلة : أى منطقة سلفنا ، وتصلح للمراعى وتكثر بها الخيول وعجلات الركوب ، وتحدث

ابن بطوطة عن الخيل ببلاد " القفجاق " أو " القوقاز" قائلا :
والخيل بهذه البلاد كثيرة جدا ، وثمنها نزر القيمة ، الجيد منها خمسون درهما أو ستون من الدراهم ، وهذه الخيل هى التى تعرف فى مصر بالأكاديش ، ومنها معاشهم ، وهى ببلادهم كالغنم ببلادنا بل أكثر، فيكون للتركى آلاف منها " .

والأكاديش جمع أكديش ، وهو نوع من الخيل الهجين صغير الحجم ، يمتاز بالقوة وشدة احتمال ، وهى مذكورة فى مصر المملوكية . ويضيف ابن بطوطة قائلا : ان هذه الخيول تصدر إلى الهند ، وأن حكام الهند والسند يجبون عليها ضرائب ، ومع ذلك : " يبقى للتجار فيها فضل كبير ، لأنهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم . وذكر ابن بطوطة أن لكل تاجر فى هذا القطيع بين المائة والمائتين ، وأكثر من ذلك . ويستأجر التاجر لكل خمسين من الفرس راعيا يقوم بالعناية عليها ، ويرعاها كالغنم ، فيركب فرسا منها وبيده عصا طويلة فيها حبل ، فإذا أراد أن يقبض على فرس منها اقترب منه بالفرس الذى ركبه ، ويرمى الحبل فى عنقه وجذبه فيركبه ويترك الآخر .

ووصف ابن بطوطة وسائل الانتقال فى بلاد القوقاز قائلا إن الأهالى يستخدمون العجلات ، وأنهم يسمون " العجلة عربة " ، وهى عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ، ومنها ما يجره فرسان ، ومنها ما يجره أكثر من ذلك ، وتجرها أيضا البقر والجمال ، على حال العربة فى ثقلها أو خفتها . والذى

يخدم العربة يركب إحدى الأفراس التى تجرها ، ويكون عليه سرج ، وفى يده سوط يحركها للمشى ، وعود كبير يصوبها به إذا عاجت عن القصد ، ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب ، مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق ، وهى خفيفة الحمل ، وتكسى باللبد ، ويكون فيها طيقان (فتحات) مشبكة ، ويرى الذى بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل ، ويقرأ أو يكتب وهو فى حال مسيره . وهناك عربات خاصة تحمل نوع المتاع والأزواد وعليه أقفال لحفظ ما بها " .

ويصف ابن بطوطة " مغول القفجاق " بأنهم ترك ، وهو أمر يكشف عن سيادة العنصر التركى فى البلاد ، وأن المغول كانوا هم الحكام ، وأن لغتهم تأثرت باللغة التركية ، وذلك فضلا عن اعتناق بعض الكلمات الفارسية ، فابن بطوطة قد كشف عن هذا الامتزاج المبكر فى بلاد القوقاز بين سكانها من المغول والأتراك ، وأن تلك التركيبة السكانية ذات حضارة عربية إسلامية فارسية ووصف ابن بطوطة حياة أولئك الأتراك التابعين لدولة خانات القفجاق قائلا : " وهؤلاء الأتراك لا يأكلون الخبز ولا الطعام الغليظ ، وإنما يصنعون طعاما من شىء شبه "الآتلى" يسمونه " الدوقى " .

يجعلون على النار الماء ، فإذا غلى صبوا عليه شيئا من الدوقى ، وإن كان عندهم لحم قطعوه قطعا صغارا وطبخوه معه، ويجعل لكل رجل نصيبه فى صحفة ، ويصبون عليه اللبن

الرائب فيشربون عليه لبن الخل ، وهم يسمونه " القمز " ، وهم أهل قوة وشدة وحسن مزاج . والآتلى والدوقى المذكوران هما صنفان من الحبوب شبيهان بالدخن ، وهى الذرة الصغيرة أو الشعير ، والقمز شراب مسكر ، ويسمى " البوزة " .

ووصل ابن بطوطة فى رحلته فى بلاد القوقاز ، وهو فى طريقه إلى عاصمة دولة خانات القفجاق ، إلى مدينة " ماجر " ، وتسمى اليوم بورجوماد زهرى ، وهى على نهر كوما إلى الجنوب الغربى من ليستراخان التى تقع على رأس دلتا نهر إتل ، وهو الفولجا . ووجد ابن بطوطة فى هذه البلدة زاوية للرفاعية فيها نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم ، منهم المتزوج والعزب ، وعيشهم من " الفتوح " ، أى مما يفتح الله به عليهم دون عمل يقومون به .

ووصف ابن بطوطة عاصمة " دولة مغول القفجاق " وهى مدينة " السرا " على نهر الفولجا ، قائلا : إنها " من أحسن المدن متناهية فى الكبر فى بسيط من الأرض تغص بأهلها كثرة ، حسنة الأسواق متسعة الشوارع ... وفيها ثلاثة عشر مسجدا لإقامة الجمعة ، أحدها للشافعية " . ووصف ابن بطوطة مكانة السلطان محمد أوزبك خان ، سلطان " دولة مغول القفجاق " بين معاصريه من ملوك العالم الإسلامى ، جاعلا إياه بين سلاطين الدنيا العظام على أيامه ، وهم سلطان بنى مرين بالمغرب ، وسلطان مصر والشام من المماليك ، وسلطان العراق من المغول المسلمين الذين يسمون " ايلخانية " . وسلطان بلاد تركستان وما وراء النهر ، وسلطان الهند ، وسلطان الصين .

وأشار ابن بطوطة إلى كثرة العلماء بعاصمة دولة المغول القفجاق ، وخص من بينهم بالذكر الفقيه الإمام الفاضل صدر الدين سليمان اللزكى من أبناء إقليم الداغستان ، وهو الأمر الذى يشهد بعلو كعب أبناء القوقاز فى ميدان الدراسات الإسلامية ، وتوليهم أرفع المناصب العلمية فى المراكز الثقافية الكبرى ببلادهم من ديار القبيلة الذهبية . وأشاد ابن بطوطة أيضا بسعة نفوذ المتصوفة فى دولة المغول القفجاق ، وضرب مثلا لذلك بالإمام الصوفى العالم نعمان الخوارزمى ، الذى كان يقيم فى زاوية صغيرة فى العاصمة " السرا " حاضرة ملك السلطان محمد أوزبك " . وذكر ابن بطوطة أن هذا العالم الصوفى " من فضلاء المشايخ ، حسن الأخلاق ، كريم النفس ، شديد التواضع ، شديد السطوة على أهل الدنيا ، يأتى إليه السلطان محمد أوزبك زائرا فى كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم إليه ، ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه ألطف كلام ويتواضع له ، والشيخ بضد ذلك ، وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف ذلك بأن يتواضع لهم ويكلمهم بألطف كلام ويكرمهم " .

وربط إسلام محمد أوزبك بلاد القوقاز بالجهود التى كانت تبذلها دولة المماليك فى مصر إذ ذاك ضد جماعات المغول التى لم تعتنق الإسلام ، وهى الجماعات التى اتخذت مقرها فى إيران بقيادة هولاكو المغولى ، الذى سبق وأن دمر بغداد وقتل الخليفة العباسى بها (١٢٥٨م) إذ سعى بركة خان " دولة مغول القفجاق " إلى التنسيق مع سلطان المماليك فى مصر وهو

بيبرس فى حربه ضد هولاكو ، ابن عم محمد أوزبك نفسه ، وذلك عن طريق تبادل الرسل والمكاتبات ، فيقول لبيبرس فى إحداها : " فليعلم السلطان ، أنى حاربت هولاكو ، الذى هو من دمى ولحمى ، لإعلاء كلمة الله ، متعصبا لدين الإسلام " . ويقول فى رسالة أخرى : " أنت تعلم أنى محب لهذا الدين ، وأن هذا العدو - يقصد هولاكو - كافر ، وقد تعدى على قتل المسلمين ، واستولى على بلادهم ، وقد رأيت أن تقصده أنت من جهتك ، وأقصده أنا من جهتى ، ونصدمه بيد واحدة ، ونزيحه عن البلاد ، وأنا أعطيك ما فى يده من بلاد الإسلام " . وقام السلطان بيبرس بتشجيع بركة خان على نصرة الإسلام ، وذلك بأن خطب له على منابر البلاد التابعة لسلطان المماليك ، فى مصر والشام والحرمين بالحجاز . وفضلا عن ذلك فقد تزوج السلطان بيبرس من ابنة بركة خان ، التى أنجبت له ابنا سماه على اسمه بركة خان تيمنا ودعما لأواصر المودة الإسلامية بينهما .

وصار عهد السلطان محمد أوزبك خان أيضا نقطة تحول هامة فى انتشار الإسلام فى بلاد القوقاز ، ذلك أن " قبائل النوغاى " التى كانت تسكن السهول والبوادى الممتدة من شبه " جزيرة القرم " إلى نهر الفوجا تولت التعريف بالإسلام لشعوب شمال القوقاز . ومن بينها " الشيشان " و" القبارطاى " و " شراكسة البحر الأسود " ووقفت المراكز الثقافية فى المدن الهامة بدولة القبيلة الذهبية ومنها " قازان " و " استراخان " (الحاج طرخان) ينابيع تمد بلاد القوقاز بما يكفل لها دوام الصلة

بالإسلام ، والتزود من معارفه العالية . وكانت مناطق نفوذ قازان قريبة بصفة خاصة من موسكو ، التى كان حكامها الروس يعينون من قبل الرئاسة الإسلامية العليا فى قازان نفسها .

٣ - تيمورلنك ، وأخذت أركان العقيدة الإسلامية تتدعم وتقوى فى بلاد القوقاز حين ظهر أحد كبار الفاتحين المسلمين فى القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، وهو المشهور باسم " تيمورلنك " ، الذى ولد فى مدينة كشى بالقرب من سمرقند سنة ٧٦٥للهجرة/١٣٣٦م ، من والد كان شيخا ورعا وزاهدا تقيا ، ومن أم تنتسب إلى سلالة جنكيزخان . ومن ثم ورث تيمورلنك ما اشتهر به جنكيزخان من جبروت وبطش ، على حين ورث عن أبيه شدة التمسك بالإسلام والمحافظة على الصلاة وقراءة القرآن الكريم .

وأسس تيمورلنك امبراطورية ضخمة ، جعل قاعدتها سمرقند ، وتمتد من الصين إلى بلاد القوقاز فقد ضم إلى مملكته الشاسعة كل من أذربيجان والداغستان ، فيما بين ١٣٨٥و١٣٩٥، وتولى فى حماسة عالية تحويل سكان القوقاز إلى الإسلام . فاعتنق الإسلام شعب " اللان " فى وسط القوقاز ، وهم أجداد " الأوسيتين " الذين يعيشون اليوم فى " أوستيا الشمالية والجنوبية " ، كما تبعتهم شعوب الداغستان من اللزجيين والآقار ، وكذلك شعب اللاك ، حيث أصبحت مدينته " غاور " قمق مركزا هاما من المراكز الكبرى ببلاد القوقاز للدعاة والمبشرين بالإسلام .

٤ - وشهد القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى قيام ثلاث قوى إسلامية عظمى تولت متابعة نشر الإسلام فى بلاد القوقاز : الأولى هى الدولة العثمانية التى تحكم آسيا الصغرى ، والثانية هى " خانية القرم " التى قامت فى أعقاب تفكك عرى القبيلة الذهبية فى القرن الخامس عشر ، وشغلت مساحة واسعة امتدت من " مولدافيا " حتى القوقاز . والثالثة هى الدولة الصفوية الحاكمة لإيران وتولت كل من الدولة العثمانية وخانية القرم نشر الإسلام بين سكان القوقاز الشمالى فى " أبخازيا " ، وكذلك بين شراكسة الشرق (القبارطيون والأباظة) وشراكسة الغرب (الأديجيون) ، وذلك على حين تولت الدولة الصفوية نشر الإسلام فى القوقاز الجنوبى ، حيث استولت على دربند وخانية شيروان سنة١٥٣٨م . وقد صاحب نشاط هذه القوى الثلاث تعدد المذاهب الإسلامية فى بلاد القوقاز ، حيث ساد المذهب الشيعى فى "أذربيجان" ، وانتشار المذهب الشافعى فى منتصف القرن السادس عشر فى الداغستان ، وانتشار المذهب الحنفى التركى فى غرب شمال القوقاز .

وامتد نشاط الدولة العثمانية وخانية القرم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى الأجزاء الشمالية الغربية والوسطى من شمال بلاد القوقاز ، حيث انتشر الإسلام بين شراكسة البحر الأسود من الأديجيين ، وكذلك بين قبائل القرنشاى والبلقار والأباظة والأبخاز . وقام الأتراك العثمانيون

سنة ١٦٢٧م بغزو الأجزاء الجنوبية الغربية من جورجيا مما ترتب عليه اعتناق شعب أدجاريا الحالى الإسلام وتحويل عاصمتهم باطومى على البحر الأسود إلى مركز من المراكز الإسلامية الهامة ببلاد القوقاز .

٥ - وعزز انتشار الإسلام فى بلاد القوقاز فى هذه المرحلة من نشاط الدولة العثمانية إقبال أهالي تلك البلاد على التصوف الذى كان ظاهرة سائدة فى شتى أرجاء العالم الإسلامى ، وما يتبع التصوف من زهد وتعبد وكرامات ، والبعد عن المداهنة لذوى السلطان ، والجهاد بالنفس . وقد صاحب التصوف تطوير وتنويع ، بحيث أصبح لهذا التصوف طرقا متعددة فى إيجاد الهيام الصوفى ، منها على سبيل المثال إنشاء الأوراد والأحزاب ، وهى أدعية دينية تتخللها عبارات ذكر الجلالة ، مثل يا لطيف ، أو الله ، بالقلب أو باللسان ، وهو ما عرف بحلقات الذكر ، وقد يصحبها التغنى بحب الله أو الموسيقى ، وتطويح الجسم مما يفضى بهم إلى الرقص ، والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم .

وقد اعتنق مسلمو القوقاز وقادتهم للطرق الصوفية على النمط العثمانى ، وهو النظام المعروف باسم " الأخيات الصوفية " ، إذ انفرد هذا النظام منذ نشأته بارتباطه بالقواعد الشعبية ، والعمل على تنظيم صفوفها ورعاية مصالحها ، ليست الدينية فحسب بل والاجتماعية كذلك ، حتى غدت "الأخيات الصوفية" تنظيما اجتماعيا وسياسيا على جانب كبير

من الأهمية ، يستهدف قضاء حوائج الناس والوقوف فى وجه الظلمة ، أى حماية الناس من ظلم الحكام ، وذلك إلى جانب العناية بالغرباء .

وقد أشار ابن بطوطة إلى هذا النظام من " الأخيات الصوفية " أثناء وجوده ببلاد الدولة العثمانية بآسيا الصغرى ، وهو فى طريقه إلى " دولة خانات القبجاق " ببلاد القوقاز فقال عند ذكر " الأخيه الفتيان " : واحد الأخيه أخى على لفظ الأخ إذا أضافه المتكلم إلى نفسه . و " الأخى " عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الأعزاب والمتجردين ، ويقدمونه على أنفسهم ... ويبنى زاوية ، ويجعل إليه فيها الفرش والسرج وما يحتاج إليه من الآلات ، ويخدم أصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ، ويأتون إليه بعد العصر بما يجتمع لهم ، فيشترون به الفواكه والطعام ، إلى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية ، فإذا ورد فى ذلك العصر مسافر على البلد أنزلوه عندهم ، وكان ذلك ضيافة لديهم ، ولا يزال عندهم حتى ينصرف . وإن لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم ، فأكلوا وغنوا ورقصوا ، وانصرفوا إلى صناعتهم بالغدو ، وأتوا بعد العصر إلى مقدمهم بما اجتمع لهم .

ووصف ابن بطوطة مجلسا من مجالس تلك " الأخيات الصوفية " قائلا : " وقد اصطف فى المجلس جماعة من الشبان ، ولباسهم الأقبية ، وفى أرجلهم الأخفاف ، وكل واحد منهم متحزم ، على وسطه سكين فى طول الذراعين ، وعلى رؤوسهم

قلانس بيض من الصوف ، بأعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها في طول ذراع وعرض أصبعين . فإذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد قلنسوته ووضعها بين يديه ، وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخانى الأسود وسواه ، حسنة المنظر ، وفى وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين .

وعلى هذا النحو من الترتيب الشعبى العميق الجذور الدينية دخل نظام " الأخيات الصوفية " إلى بلاد القوقاز ووقفت وقفة الحارس الساهر على سلامة الدين الإسلامى عند أهالى القوقاز،وبخاصة فى الفترات التى تعرضوا فيها للاضطهادات . وصارت بلاد القوقاز نموذجا تحتذيه سائر البلاد الإسلامية المجاورة لهم فى اتباع نظام " الأخيات الصوفية " ، والتمسك بتعاليم تلك " الأخيات " باعتباره صمام الأمن لكيانهم ووجودهم .

وصاحب انتشار " الأخيات الصوفية فى بلاد القوقاز الطرق الصوفية الأخرى المعروفة وبخاصة الطريقة النقشبندية ، وكذلك الطريقة القادرية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وتأسست الطريقة النقشبندية على يد الشيخ محمد بهاء الدين نقشبند فى مدينة بخارى ، ويرجع هذا المؤسس نسبه إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقد ولد هذا الشيخ عام ٧١٨للهجرة/١٣١٧م وتوفى سنة٧٩٢للهجرة/١٣٨٩م بعد أن أعد فى نظام دقيق كافة الوسائل لأتباعه لنشر الإسلام فى آسيا الوسطى وبلاد القوقاز وتتار الفلجا . ووصلت تلك الطريقة إلى

الهند والصين ، كما امتدت إلى الشرق الأوسط ، وهى الأمور التى أتاحت للمسلمين فى بلاد القوقاز الاتصال بسائر أقرانهم من المسلمين على امتداد رقعة دار الإسلام الشاسعة ، حيث جرى نشاط شيوخ الطريقة النقشبندية ومريديها على امتداد الأراضى الشاسعة من القوقاز فى جبال الداغستان والشاشان غربا إلى بخارى وقرغيزيا وإلى حدود الصين شرقا .

وقد دخلت الطريقة النقشبندية فى القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى إلى بلاد القوقاز على يد الشيخ منصور أشرمة . ثم امتد نشاط هذه الفرقة إلى بلاد الشاشان أثناء إمامة الشيخ شامل فى الداغستان ، وذلك على يد أحد نوابه وهو الشيخ تاشو حجى سنة ١٢٤٦ للهجرة/١٨٣٠م . واتسمت الطريقة النقشبندية بالاعتماد فى رياضتها الروحية على الذكر العلنى ، مما جعل الروس يطلقون على أتباعها اسم "شيبتونى" أى المتمتمين . واشتهرت الطريقة النقشبندية أيضا بالقدرة على استقطاب علماء الدين والمثقفين فى بلاد القوقاز ، وأتاحت لهم الوصول إلى أعلى المراكز فى إدارة بلادهم والدفاع عن شئونها .

ودخلت الطريقة القادرية بلاد القوقاز فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر على يد " كونتاحاجى كيشييف " الذى تلقى أصول هذه الطريقة من تصوف وذكر على يد مؤسس الطريقة نفسه ، وهو الشيخ عبد القادر الجيلانى ببغداد أثناء مروره بها فى طريقه إلى الحج بمكة المكرمة . وتعتمد الطريقة

القادرية فى ممارسة رياضتها الروحية على الذكر العلنى ، مما جعل الروس يطلقون على أتباعها اسم " ذيكريستى " أى أصحاب الذكر العلني ، واشتهرت الطريقة القادرية بالقدرة على استقطاب الطبقات الشعبية وتعبئة صفوفها من أجل صالح بلاد القوقاز والدفاع عن كيانه .

وقد تشعبت الطريقة القادرية فى بلاد القوقاز ، بعد وفاة مؤسسها كونتاجي إلى أربع شعب أو فروع ، يطلق على الواحد منها اسم " ورد " ، وكان لكل منها دورها الهام فى نشر وتدعيم أركان الإسلام في بلاد القوقاز . فحمل " الورد الأول " وهو المعروف باسم " النظامى " اسم كونتاجى ، وانتشر نشاطه فى الشيشان اينغوشا والداغستان . أما الورد الثانى فكان عبارة عن " طريقة بطل حجى بلهوربيف " ، التى اتخذت مركزها فى بلاد الاينغوش ، ثم امتد نشاطها إلى الشاشان والداغستان ، واتخذت من التعاليم الإسلامية والعمل على تطبيقها العملى أساسا لممارسة أعمالها ، كما اتسم أتباعها بالتمسك الشديد بالشريعة الإسلامية وآدابها . وظهر " الورد الثالث " المعروف بطريقة بامات حجي ، واتخذت مركزها فى بلاد الاينغوش . وأخيرا قام الورد الرابع المعروف باسم " طريقة تشيم ميرزا " بالعمل فى منطقة شامى من بلاد الشاشان .

ووقفت بلاد القوقاز ، بذلك ، منذ فجر الإسلام على التيارات المهمة التى امتلأت بها دار الإسلام وهى تنمو منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وكذلك على عهد الأمويين والعباسيين

والسلاجقة والمغول وعهد تيمورلنك وأخيرا على عهد الدولتين الصفوية بإيران والعثمانية بآسيا الصغرى . وذلك بمطالع العصر الحديث فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى . وعرفت بلاد القوقاز شتى المذاهب التى حفلت بها دار الإسلام ، فضلا عن الطرق الصوفية التى قامت تدعو إلى التقرب إلى الله وبناء روح إسلامية عالية . تقوم على أساس التفانى فى محبة الله .

وخلقت تلك التيارات الإسلامية العظمى والتقائها ببلاد القوقاز مظهرا فريدا اتسم به المسلمون فى بلاد القوقاز ، وهو مظهر يقوم على الاخاء الإسلامى وروح التسامح كذلك . فقد عاش المسلمون من سنة وشيعة ، فضلا عن جماعات المتصوفة عيشة امتزاج وتفاهم وحسن جوار ، يظلهم جميعا تعاليم الإسلام السامية ، ويعملون جهد طاقتهم لإعلاء شأن بلادهم والعمل على ما يكفل لها السلامة والطمأنينة .

الفصل الثانى

الطغيان الروسى على بلادالقوقاز

أولا : استيلاء روسيا القيصرية على بلاد القوقاز :

تعرضت بلاد القوقاز - على نحو ما تعرضت له دار الإسلام - منذ مطالع العصر الحديث ، فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، إلى أطماع استعمارية شرسة ، حمل لواءها الروس الذين تمكنوا فى ذلك الوقت من جعل موسكو عاصمة لدولة لهم ، هى الدولة المسكوبية ، نسبة الى اسم العاصمة موسكو . وشهدت هذه الدولة فى القرن التاسع الهجرى / القرن الخامس عشر الميلادى ظهور مجموعة من حكامها القياصرة ، الذين رسموا سياستهم على أساس التوسع الرهيب على حساب القوى الأسلامية المجاورة لهم ، فى كل من مناطق نهر الفولجا ، وبلاد القوقاز ، ووسط آسيا كذلك .

وبدأ التمهيد للطغيان الروسى على بلاد القوقاز حين تولى شئون الدولة المسكوبية سنة ٨٨٥ للهجرة / ١٤٨٠م حاكم عدوانى هو القيصر " ايفان الثالث " الذى انتقل من التبعية لامارة المسلمين فى قازان التتارية على نهر الفلجا الى العدوان على تلك الامارة نفسها ، وإنزال الهزائم بقوتها العسكرية . فقد فتح هذا العدوان الروسى السبيل لهدم السور الاسلامى ببلاد الفولجا ، الذى كان يقف سدا منيعا يحمى بلاد القوقاز من الأخطار الخارجية . ووقع هذا العدوان الروسى الخطير حين

تولى حفيد ايفان الثالث ، وهو المعروف باسم " ايفان الرهيب شئون دولة موسكو اذاستولت قواته الروسية على امارة قازان الإسلامية نفسها سنة ٩٦٠ للهجرة / ١٥٥٣م ، وفرض على أهلها المسلمين أشد ألوان الطغيان ، وهو حملهم على ترك دينهم ، أو ترك وطنهم والهجرة الى خارج البلاد . وطبق إيفان الرهيب نفس السياسة الروسية الطاغية على المركز الإسلامى الثانى على نهر الفولجا ، وهو إمارة أستراخان (الحاج طرخان) ، وصارت القوات الروسية الباغية بالتالى على مداخل بلاد القوقاز .

وكانت تتقاسم بلاد القوقاز إذ ذاك قوتان اسلاميتان متعاديتان ، هما : دولة الفرس الصفوية الشيعية ودولة الأتراك العثمانيين السنية ، هذا فضلا عن انقسام شمال بلاد القوقاز نفسها الى كيانين سياسيين ، احدهما يشكل اتحادا فدراليا من أمراء سكان القوقاز من القبرطاى ، والآخر يتكون من امارة تقع شمال داغستان و هى أمارة تاكى التى خضعت لحاكم كان يطلق عليه لقب " شفكال " ومن ثم وجد قياصرة روسيا الفرصة سانحة للزحف على بلاد القوقاز ، باعتبارها لقمة سائغة . فقام ايفان الرهيب غداة استيلائه على استراخان ببناء قلعة على مصب نهر " تيرك " ، كما قام بالوقيعة بين الكيانين السياسيين المحليين ببلاد القوقاز . فأعلن ايفان الرهيب تأييده للقبرطاى ، وبعث سنة ١٥٦٠م بابنة أحد أمراء القبرطاى ، واسمه "تمربوك" ، متخذا من ذلك سبيلا لإعلان خضوع القبرطاى

لسلطان الروس . غير أن حاكم " الشفكال " إمارة تاكى تصدى لهذا الزحف الروسى المبكر على بلاد القوقاز ، وأنزل الهزيمة بالقوات الروسية سنة ١٥٩٣/١٥٩٤. ولحقت هزيمة أخرى بالقوات الروسية سنة ١٦٠٤/١٦٠٥م ، وهو الأمر الذى ترتب عليه حمل الروس على التخلى مؤقتا عن قلاعهم الأمامية بالقوقـاز .

وتجدد الزحف الروسى على بلاد القوقاز مع مطالع القرن الثامن عشر الميلادى حين عمد قيصر روسيا وهو بطرس الأكبر إلى مهاجمة مناطق النفوذ لكل من الفرس الصفويين والأتراك العثمانيين فى بلاد القوقاز فأعد بطرس الأكبر سنة١٧٢٢ جيشا نقله بحرا من أستراخان إلى ساحل داغستان بالقوقاز . واحتل المنطقة الممتدة إلى مدينة باكو . غير أن الروس اضطروا إلى التخلى عن تلك المناطق فيما بين سنتى١٧٢٩و١٧٣٥م وذلك بسبب ازدياد قوة الفرس الصفويين .

ولجأت امبراطورة روسيا كاترين الثانية إلى إقرار السلطان الروسى فى بلاد القوقاز ، وذلك بإقامة "خط القوقاز" ، وهو عبارة عن سلسة من القلاع والحصون والمستوطنات للقوزاق الروس ، تمتد من وادى نهر " تيرك " إلى بحر آزوف . وحملت هذه السياسة الروسية حكام القبرطاى الكبرى والصغرى ببلاد القوقاز إلى إعلان خضوعهم لروسيا سنة ١٧٧٩.

وتابعت الامبراطورة كاترين الثانية سياسة التوسع الروسى فى بلاد القوقاز ، وبخاصة القضاء على مناطق النفوذ العثمانى بتلك البلاد ، وما جاورها من سلطان عثمانى على شبه جزيرة القرم ، وكان العثمانيون يتولون حماية سكان الأجزاء الشمالية الغربية من القوقاز من بلاد الشراكسة وإقليم أبخازيا ونجح الروس فى القضاء على النفوذ العثمانى ببلاد القوقاز ، وبخاصة فى أرمينيا ، حيث تدخل الروس ضد العثمانيين هناك ، تحت ستار حماية الأرمن المسيحيين من بطش العثمانيين .

الاستبداد الشيوعى فى بلاد القوقاز

تعرض مسلمو القوقاز إلى خديعة كبرى ، وإلى معاناة شديدة أيضا نتيجة الأحداث التى وقعت فى روسيا بمطالع القرن الحالى ، القرن العشرين ، وهى الأحداث التى أدت إلى قيام الثورة الروسية البلشفية (الشيوعية) فى اكتوبر ١٩١٧ ضد حكم القياصرة إذ تطلع قادة تلك الثورة وعلى رأسهم لينين ، وهم يخوضون القتال ضد أعدائهم إلى الحصول على تأييد مسلمى القوقاز المشهورين بالشجاعة ، ومعهم سائر المسلمين فى البلاد الأخرى حول نهر الفلجا ووسط آسيا . فأصدر لينين - جريا على سياسة أن الغاية تبرر الوسيلة - فى ٢٢ نوفمبر١٩١٧ (١٣٣٦ للهجرة) ، أى بعد شهر واحد من توليه السلطة - بيانا الى مسلمى القوقاز، وإلى غيرهم من المسلمين ، داخل روسيا وخارجها كذلك يبشرهم بوعود خلابة ، قوامها تحرر المسلمين داخل روسيا من حكم القياصرة البغيض ، وحض المسلمين خارج روسيا ، وبخاصة فى البلاد العربية ، الى الثورة ضد الاستعمار الأوربى الجاثم على انفاسهم ، كما فضح لينين الاتفاقات السرية التى سبق أن أبرمتها تلك القوى الاستعمارية الأوربية مع قياصرة روسيا لتفتيت العالم الإسلامى ، وتقسيم بلاده فيما بينهم .

وجاء فى هذا البيان الأول الذى أصدره لينين الدعوة البراقة والوعود الخادعة التالية :

" يا مسلمى روسيا ... يا مسلمى الشرق ، أيها الرفاق ... أيها الاخوة :

" إن أحداثا عظيمة تحدث الآن فى روسيا : إن العهد الدموى (أى الحرب العالمية الأولى) الذى بدأ بسبب أطماع الاستعماريين الامبرياليين فى أرضكم قد قارب النهاية ... وتحت ضربات الثورة الروسية فإن النظام الاستعبادى الاستبدادى يتقوض بناؤه الآن . وأن حكم الطغاة والمستبدين ومصاصى الشعوب يقترب من أيامه الأخيرة الآن ، وأن عالما جديدا يولد الآن ، عالم العمال والأحرار ، وعلى رأس ثورة الفلاحين والعمال يقوم مجلس الشعب الممثل بالقوميسار الروسى " ...

" إن عهد الرأسماليين والامبرياليين يتداعى وأن الأرض تميد من تحت أرجلهم ، وتشتعل الثورة من تحت أقدامهم " ...

" وفى خضم هذه الأحداث العظام نلتفت إليكم يا مسلمى روسيا والشرق الذين استرقكم الاستعمار واستلب أموالكم وأراضيكم " ...

" يا مسلمى روسيا ، يا تتار الفولجا والقرم ، أيها القرغيز وسكان سيبيريا والتركستان ، يا سكان القوقاس الأبطال وقبائل الشاشان وسكان الجبال الأشداء ... أنتم يا من هدمت مساجدكم وحطمت معابدكم ... ومزق القياصرة الطغاة قرآنكم وحاربوا دينكم ... وأبادوا ثقافتكم وعاداتكم ولغاتكم " ...

" ثوروا من أجل دينكم وقرآنكم وحريتكم فى العبادة ... إننا هنا نعلن احترامنا لدينكم ومساجدكم ، وأن عاداتكم وتقاليدكم حرة لا يمكن المساس بها ... ابنوا حياتكم الحرة الكريمة المستقلة

دون أى معوقات ... ولكم الحق فى ذلك .. واعلموا أن جميع حقوقكم الدينية والمدنية مصونة بقوة الثورة ... ورجالها والعمال والفلاحين والجنود وممثليهم ... لهذا نطلب منكم تأييد الثورة ومساندتها لأنها تقوم من أجلكم من أجل حريتكم الدينية والمدنية " .

" يا مسلمى الشرق ... ويا مسلمى ايران وتركيا وبلاد العرب والهند ، أنتم يامن تاجر مصاصو الدماء الأوربيون المستعمرون بحياتكم وأوطانكم وحرياتكم لعدة قرون من الزمان ... أنتم يامن يتآمر عليكم هؤلاء اللصوص الذين يتقاسمون أرضكم ويشعلون نار الحرب لتكونوا أتونها ، ثم يستلبون بعد ذلك أرضكم وثرواتكم .

" أما نحن فنعلن بأعلى صوتنا أن الاتفاقات السرية التى أبرمت بين روسيا القيصرية و بين فرنسا وبريطانيا والاستعماريين والتى بموجبهاالقتسموا أراضيكم أيهاالمسلمون ، واستلبوا ثرواتكم ونهبوا خيراتكم ، نعلن أنها باطلة ، ونعلن أن خطط القيصر المخلوع وحكومة كرينسكى التى أزاحها الشعب للاستيلاء على القسطنطينية (عاصمة الخلافة الإسلامية) باطلة ولاغية .

" إن حكومة جمهورية روسيا الثورية ومجلس الشعب الأعلى فيها يعلنون أنهم ضد احتلال أراضى الغير بالقوة ... ونعلن أن القسطنطينية ينبغى أن تبقى بيد المسلمين .

كما نعلن أن الاتفاقية السرية بين بريطانيا وروسيا القيصرية لاقتسام إيران بينهما لاغية وباطلة ، ونعلن أننا

نسحب قواتنا من إيران بمجرد انتهاء العمليات العسكرية ... ونضمن استقلال إيران الكامل . وأننا نعلن أيضا أننا ضد تقسيم تركيا واقتطاع أرمينية منها ، وأن هذه الاتفاقيات السرية باطلة ولاغية .

" ليس من روسيا أيها المسلمون - سيأتى استعبادكم بل من الدول الأوربية الاستعمارية ... من هؤلاء اللصوص مصاصى الدماء الذين استعمروا أرضكم واستلبوا ثرواتكم وزجوا بأبنائكم فى أتون حرب لا يأتيكم منها إلا الدمار ، وفى مقابل ذلك كله يقتسمون ما بقى من أرضكم وثرواتكم وكأنكم وبلادكم غنائم الحرب المنتظرة .

" ثوروا ضد هؤلاء الطغاة الكفرة الذين سرقوا ثروات بلادكم واستعبدوا أوطانكم . نعم ثوروا الآن فى هذا الوقت الذى تشتعل فيه الثورة ويتهدم فيه بنيان الطغاة والاستبداد ويتقوض فيه نظام الاستعمار " .

" ثوروا فإن أى شرارة الآن ستكون حريقا يلتهم بنيان الطغيان والاستعمار . إن الهنود المسلمين الذين ذاقوا الذل والاستعباد لقرون طويلة يثورون الآن ضد بريطانيا العظمى ، ويرفضون أن يبقوا حول أعناقهم الأغلال التى غلتهم بها بريطانيا لعدة قرون " .

" اليوم لا يمكن السكوت على هذا الظلم وعلى هذا الاستعباد ... إنه وقت الثورة ضد المستعمرين الإنجليز الغاصبين لأوطانكم المحاربين لدينكم المستبيحين لمقدساتكم الناهبين لثرواتكم " .

" الآن أيها الرفاق والأخوة هو الوقت المناسب للثورة ولصنع مستقبلكم الحر الباسم بأيديكم " .

" تقدموا أيها المسلمون لتحرير أوطانكم وارفعوا أعلام ثورتكم فإن أعلامنا وبنودنا قد رفعت من أجل حرية المستعبدين والمظلومين " يا مسلمي روسيا ويا مسلمى الشرق هلموا إلينا.. إلى طريق الحرية والعدالة لنبنى هذا العالم من جديد على أسس الحق والخير والعدل .

التوقيع
جوزيف ستالين
فلادمير لينين

واتخذ لينـين بعد ذلك خطوات أخرى مظهرية إمعانا فى خداع المسلمين فى روسيا واجتذابهم إلى صفه . فقام بتسليم مصحف عثمان رضى الله عنه ، والذى كان فى حوزة القياصرة إلى ممثلى المسلمين في مؤتمر بتروجراد ، هذا فضلا عن تسليم عدد كبير من الآثار والوثائق الإسلامية الهامة التى كان القياصرة قد استولوا عليها ، وكان مسلمو القوقاز يشاركون إخوانهم من مسلمى روسيا الآخرين في استلام هذه الثروات الإسلامية وتراثها المجيد ، نظرا لمكانتهم ودورهم الهام فى العالم الإسلامـى .

وبادر مسلمو القوقاز إلى انتهاز تلك الوعود التى قدمها لينين لهم خاصة وللمسلمين عامة ، وأعلنوا استقلالهم سنة١٣٣٧ للهجرة/مايو١٩١٨م ، وتبعتهم جورجيا بعد بضعة أسابيع غير أن أهالى القوقاز وكذلك إخوانهم من مسلمى روسيا سرعان ما تبين لهم خداع لينـين لهم ، وذلك حين قام هو بنفسه بالحملة على المناطق الإسلامية بروسيا سنة ١٣٣٧ للهجرة / ابريل ١٩١٨م وتابع لينـين الاستيلاء على بلاد القوقاز الواحدة بعد الأخرى من سنة ١٣٣٧ للهجرة / ١٩١٨م حتى سنة ١٣٤١ للهجرة / ١٩٢٢م ، حيث استبد الطغيان الروسى مرة أخرى بمسلمى القوقاز .

وأخذت بلاد القوقاز تشهد ، مع غيرها من بلاد المسلمين فى روسيا ، طغيانا شيوعيا رهيبا ، اتجه منذ سنة ١٩٢٨ وحتى إعلان الحرب العالمية الثانية إلى الهجوم المباشر ضد الدين

الإسلامى . واتخذ هذا الهجوم الروسى على الإسلام مظهرين خطيرين : أولهما قفل المساجد والمدارس الدينية ، وتشريد من كان بها من المعلمين وطلبة العلم ، وثانيهما شن حملة من الدعاية الضخمة ضد الإسلام وتكرر هذا الهجوم الروسى مرة أخرى ضد مسلمى القوقاز وغيرهم من مسلمى روسيا فى الفترة من سنة ١٩٥٤ إلى سنة ١٩٦٤، حيث شارك فى هذا الهجوم كافة الأجهزة الروسية من صحافة وإذاعة وتلفزيون وسينما ومسرح ، كما تم فى هذه الفترة طبع ما يزيد على مائة وثلاثين كتابا مناهضا للإسلام . وتركزت الحملات ضد الإسلام بصفة خاصة على موضوع المرأة المسلمة والختان والصيام وعقيدة اليوم الآخر والجنة والنار باعتبارها من الأمور الغيبية التى تخدر بها الشعوب ، وأن الدين الإسلامى مع غيره من الأديان ، جريا على الدعوة الإلحادية الروسية ، أفيون الشعوب .

الفصل الثالث

الخريطة السياسية المعاصرة لبلاد القوقاز .. أصولها وخطوطها

تستند الخريطة السياسية لبلاد القوقاز إلى التقسيم الإدارى الذى سار عليه الاتحاد السوفيتى عند تأسيسه كدولة فدرالية قامت بموجب معاهدة ١٩٢٢م ، إذ اشتمل هذا النظام الإدارى على أربعة أنواع هى :

١ - جمهوريات اتحادية ، لها دستورها الخاص ولها برلمانها المنتخب وله الحق فى الانفصال نظريا عن الاتحاد السوفيتى ، وفقا للمادة ٧٣ ، كما لها الحق فى الاشتراك فى المنظمات الدولية .

٢ - جمهوريات ذات حكم ذاتى وتقوم على أساس عرقى يختلف عن العناصر السلافية التى تكون الجمهوريات الروسيـة .

٣ - الأقاليم ذات الحكم الذاتى ، وتقوم على أساس عرقى .

٤ - مناطق لها استقلال ذاتى .

وقد انتهى هذا الوضع الإدارى للاتحاد السوفيتى فى ١١ديسمبر سنة ١٩٩١م حين قررت روسيا الاتحادية وأكرانيا وروسيا البيضاء إنشاء " كومنولث " فيما بينها ، وأن يكون مفتوحا أمام سائر الوحدات الإدارية الأخرى بالاتحاد السوفيتى

سابقا للانضمام إلى هذا الكومنولث . وقد آلت البلاد الإسلامية بالاتحاد السوفيتى سابقا إلى جمهورية روسيا الاتحادية ، التى تعتبر أكبر الجمهوريات الاتحادية السوفيتية قاطبة . وقد تركزت أوطان المسلمين فى مناطق آسيا الوسطى من روسيا الاتحادية ، وحول نهر الفلجا بتلك الجمهورية ، وأخيرا فى بلاد القوقاز من جمهورية روسيا الاتحادية .

ووضعت روسيا الاتحادية نظاما يهدف إلى تفريق المسلمين بتلك البلاد التابعة لها ، وتوزيعهم على قوميات مختلفة وإلى وحدات مختلفة الأحجام وذات نعرات قومية ولغات مختلفة بل وثقافات متباينة بحيث يكون الاتصال فيما بينهم معدوما أو شبه معدوم . وسارت روسيا الاتحادية على هذا النهج فى رسم الخريطة السياسية لبلاد القوقاز التابعة لها ، وهى نفس سياسة الدول الأوربية الاستعمارية فى البلاد الإسلامية الأخرى التى سيطرت عليها فى افريقيا وآسيا ، وهى السياسة التى تقوم على قاعدة تفتيت جسد الأمة الإسلامية ، وتمزيق دار الإسلام بمئات النعرات القومية والشنشنات المحلية . فقسم الروس بلاد القوقاز - على نحو ما قاموا به فى الجهات الإسلامية الأخرى التى استولوا عليها على امتداد نهر الفولجا وآسيا الوسطى إلى جمهوريات اتحادية وأخرى جمهوريات ذات استقلال ذاتى ، فضلا عن تخصيص بعض المناطق للعناصر التى تهدف إلى تحجيمها وكبت حريتها ، وكان اطلاق كلمة جمهورية وهم وخداع إذ لم تكن تلك الجمهوريات غير

مستعمرات روسية أشبه بالمستعمرات التى أقامها الاستعمار الأوربى ، إذ تولى حكم هذه الجمهوريات الإسلامية التى أقامها الروس فى بلاد القوقاز مستعمرون روس وموظفون من روسيا تتبع كلها الحزب الشيوعى الروسى ، فكان السكرتير الأول والثانى فى كل جمهوية من هذه الجمهوريات الإسلامية هو روسى وليس من أبناء البلاد المحليين وغدت الخريطة السياسية لبلاد القوقاز تضم على صغر حجمها وعدم كثافة سكانها أربع عشرة جمهورية صغيرة بعضها يتبع الجمهوريات الثلاث الرئيسية فى جنوب القوقاز ، وهى أذربيجان وجورجيا وأرمنيا ، على حين يتبع بعضها الآخر القائم فى شمال القوقاز روسيا مباشرة ، وذلك على النحو التالى :

(أ) جمهوريات جنوب القوقاز :

أولا : جمهورية أذربيجان الاتحادية ، وتمتد حدودها من جهة الشمال بامتداد سلسلة جبال القوقاز الكبرى إلى جبال القوقاز الصغري حتى جبال طاليش . ويحد هذه الجمهورية شرقا بحر قزوين ، على حين يجاورها من الشمال جمهورية داغستان ، ومن الشمال الغربى كل من جمهورية أرمنيا وجورجيا السوفيتيتان ، ويحد هذه الجمهورية جنوبا نهر الرس الذى يفصل بينها و بين أذربيجان الايرانية . أما من الجنوب الغربى فيحد هذه الجمهورية الجمهورية التركية .

وقد أعلن استقلال جمهورية أذربيجان السوفيتية سنة ١٣٣٨ للهجرة / ١٩١٩ م ، ولها مساحة كبيرة ، بلغت

١٣٧و٩٤كيلو متر مربع . غير أن تلك المساحة تضاءلت بعد اقتطاع أراضى "قاربازى" و " بورجالى " منها ، وأعطيت الى جمهورية جورجيا ، هذا فضلا عن اقتطاع أقاليم " القازان " و " زنكيزور " وإعطائها لجمهورية أرمينيا السوفيتية . وصارت المساحة الحالية لجمهورية أذربيجان السوفيتية ...و٨٧ كيلو متر مربع .

وتتميز أراضى أذربيجان بتنوع الطبيعة فيها تنوعا كبيرا ، ففى المناطق الشرقية والوسطى توجد سهول فسيحة ، تزرع بها محاصيل القطن والأرز و الشاى و الكروم ، وذلك فضلا عن ثروتها الحيوانية و بخاصة من الأبقار الجيدة . وتنتج هذه المناطق الخصبة من أذربيجان الحرير الطبيعى من دودة القز . وفى المناطق الجنوبية الشرقية من أذربيجان توجد جبال شاهقة تغطيها الثلوج معظم أيام السنة وتتركز مدن أذربيجان على ضفاف نهر كورا ، كما تقع العاصمة باكو على بحر قزوين ، وتسيطر بالتالى على مناطق البترول المجاورة لها ويعتبر البترول و الغاز الطبيعى أهم ثروات أذربيجان ، و هو الأمر الذى اشتهرت به تلك البلاد منذ عهد مبكر . فذكر المؤرخ المسعودى نفط باكو ، حيث زارها سنة ٣٠٣ للهجرة / ٩١٥ م . ، وأشار الى أنه يستخدم فى الاستسباح ، وأن الخليفة العباسى المعتمد أقطع هذا البترول لسكان باكو وما حولها . وذكر القزوينى فى كتابه " عجائب المخلوقات " ان الخلافة العباسية خصصت فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى وزيرا

لشئون النفط . وقال ياقوت عن باكو (باكوه أو باكويه) : بها "عين نفط عظيمة وتبلغ قبالتها فى كل يوم ألف درهم ، والى جانبها عين أخرى تسيل بنفط أبيض لا ينقطع ليلا ونهاراً .

ويلعب النفط دوراً هاماً فى اقتصاديات جمهورية أذربيجان فى الوقت الحاضر ، ولاسيما بعد اكتشاف منابع أخرى للنفط فى حوض نهر كور .

ومعظم سكان أذربيجان من الأتراك السنة ، ويعيش إلى جوارهم عيشة طيبة الشيعة الذين يشكلون من سبعين إلى خمس وسبعين بالمائة من مجموع السكان ، والاختلاط بينهما قوى ، ويتزاوجون أيضا ، مما يؤكد قوة الإسلام وتعاليمه فى أذربيجان . وتميزت العاصمة باكو بوجود إدارة رسمية إسلامية يرأسها " شيخ للإسلام " شيعى ، ويساعده اثنان أحدهما شيعى والآخر سنى . وأثناء الطغيان الروسى على أذربيجان كان يقوم بالدعوة سرا بين سكانها الشيعة " السادة " الذين ينتسبون إلى سبطى النبى ، الحسن والحسين ، على حين يقوم بالدعوة الإسلامية فى مناطق السنة مريدو الطريقة النقشبندية . ووقفت كل من جماعات الشيعة والسنة جنبا إلى جنب فى مواجهة عمليات الإلحاد التى استهدف الشيوعيون نشرها بين الشباب المسلم ، وغدت أذربيجان الاتحادية معقلا من معاقل الإسلام القوية الأوتاد .

وتتبع جمهورية أذربيجان الاتحادية جمهوريتان هما : جمهورية " بره باخ " و " ناخيتشفان .. وتقع منطقة " قره باخ "

فى جبال الكاوباخ ، وأغلب سكانها من الأرمن ، الذين يعيشون أشبه بجزيرة محاطة بالأذربيجانيين وتبلغ نسبة الأرمن نحو ٧٦ بالمائة من السكان على حين يبلغ الأذربيجانيون نحو ٢٣ بالمائة من مجموع السكان . أما جمهورية ناخيتشفان فقد أنشئت فى ٢٩ فبراير سنة ١٩٢٥م على مساحة قدرها ٥٥٠٠كيلومتر مربع ، وتقع وسط أرمينيا ، إلا أنها تابعة إداريا لأذربيجان الاتحادية .

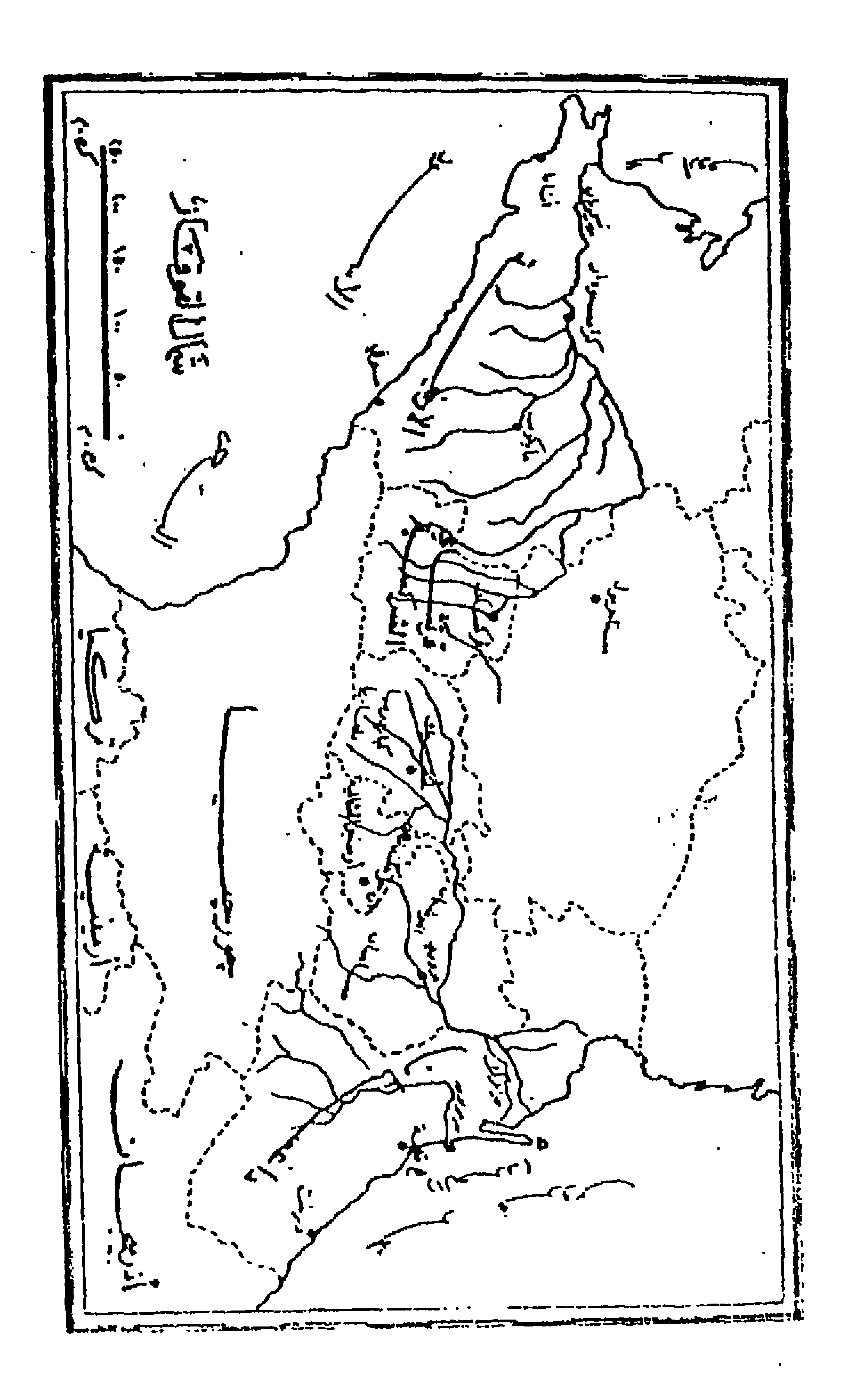
ثانيا : جمهورية جورجيا : وتشمل السفوح الجنوبية الغربية لجبال القوقاز ، على امتداد مساحة قدرها ٧٠ر٠٠٠كيلومتر مربع ، واستولت عليها روسيا القيصرية سنة ١٢١٦ للهجرة / ١٨٠١م وتتميز جورجيا بمناخها المعتدل ، حيث تحول الجبال العالية فى الشمال دون وصول الرياح الشمالية الشرقية الباردة إليها ، ومن ثم تكثر بها دور النقاهة والمصايف الممتازة .

(ب) جمهوريات شمال القوقاز :

أولا : الداغستان ، وهى كلمة تركية تعنى بلاد الجبال ، وهو اسم حقا على مسمى ، إذ تشكل الجبال ثلاثة أرباع أراضى الداغستان ، وتقع الداغستان شمال أذربيجان الاتحادية على امتداد الشواطىء الغربية الشمالية لبحر قزوين ، ويحدها من الشمال جمهورية الكالمك ، ومن الجنوب الغربى جمهورية جورجيا ومن الشمال جمهورية أوستينا ومن الشرق بحر قزوين . وتبلغ مساحة الداغستان ٥٠ر٣٠٠ كيلو متر مربع .

وتنقسم تضاريس داغستان قسمين : أحدهما هو السهل الساحلى المطل على بحر قزوين ، وتكثر به القرى والمدن ، وهناك امتداد للمرتفعات فى اتجاه ساحل بحر قزوين ، وتقسمه إلى قسمين : هما الساحل الشمالى والساحل الجنوبى، ومركز الاتصال بينهما " بوابة دربند " (باب الأبواب) ، وهو الممر الرئيسى الشرقى إلى القوقاز . ويصف الجغرافيون المسلمون " دربند " بأنها من أجل موانى بحر قزوين ، " وفى وسطها مرسى للسفن ، وفى هذا المرسى الخارج من البحر إليها بناء قد بنى كالسد بين جبلين مطلين على هذا المرسى الخارج ماؤه من بحر الخزر (قزوين) وفى هذا السد باب مغلق على الماء قد استحكم من رصيده بعقد قد عقد على الماء نفسه والماء من تحته ... وعلى فم المدخل الذى تدخل فيه السفن سلسلة ممدودة وعليها قفل لمن ينظر فى أمر البحر فلا يخرج المركب ولا يدخل إلا بأمر صاحب القفل " أما القسم الآخر من تضاريس داغستان فهو المرتفعات التى منحت تلك البلاد شخصيتها المميزة . ذلك أن المسافة بين الجبال الشاهقة والبحر قريبة ، ومن ثم كانت جبالها ووديانها شديدة الانحدار ، وأطول الأنهار فيها نهر "ترك" الذى يصل إلى جروزنى ببلاد الشيشان .

وتشتهر داغستان بزراعة الحبوب من القمح والذرة ، وكذلك زراعة الخضروات ، وذلك فضلا عن ثروتها من النفط الذى يستخرج من شواطئها على بحر قزوين ، وكذلك استخراج الغاز الطبيعى . وقامت صناعات عديدة على ثروة البلاد



الكثيرة ، منها صناعة الزجاج والسجاد ، ومعامل تعبئة الأسماك .

وتكثر القبائل وتتعدد باقليم الداغستان ، ومن أهمها :

(أ) سكان الجبال أو الداغستان .

(ب) القوموق ، وهم يعيشون شمال الداغستان ، وكانوا أول من اعتنق الإسلام .

(جـ) الآندى : وهم مجموعة من القبائل يعرفون باللزكى ، الذين اختلطوا بالقبائل العربية منذ الأيام الأولى لانتشار الإسلام فى تلك الجهات زمن الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ للهجرة / ٧٢٣م .

(د) قبائل القايتاق والقومون التى قامت بدور هام فى نشر الإسلام ، وبناء الحضارة الإسلامية كذلك ، حيث اشتهر من ملوك القايتاق السلطان أحمد خان الذى بنى مدينة " المجالس " ، والتى سميت بهذا الاسم لكثرة مجالس العلم بها . وقد توفى هذا السلطان سنة ٩٩٦ للهجرة / ١٥٨٧م .

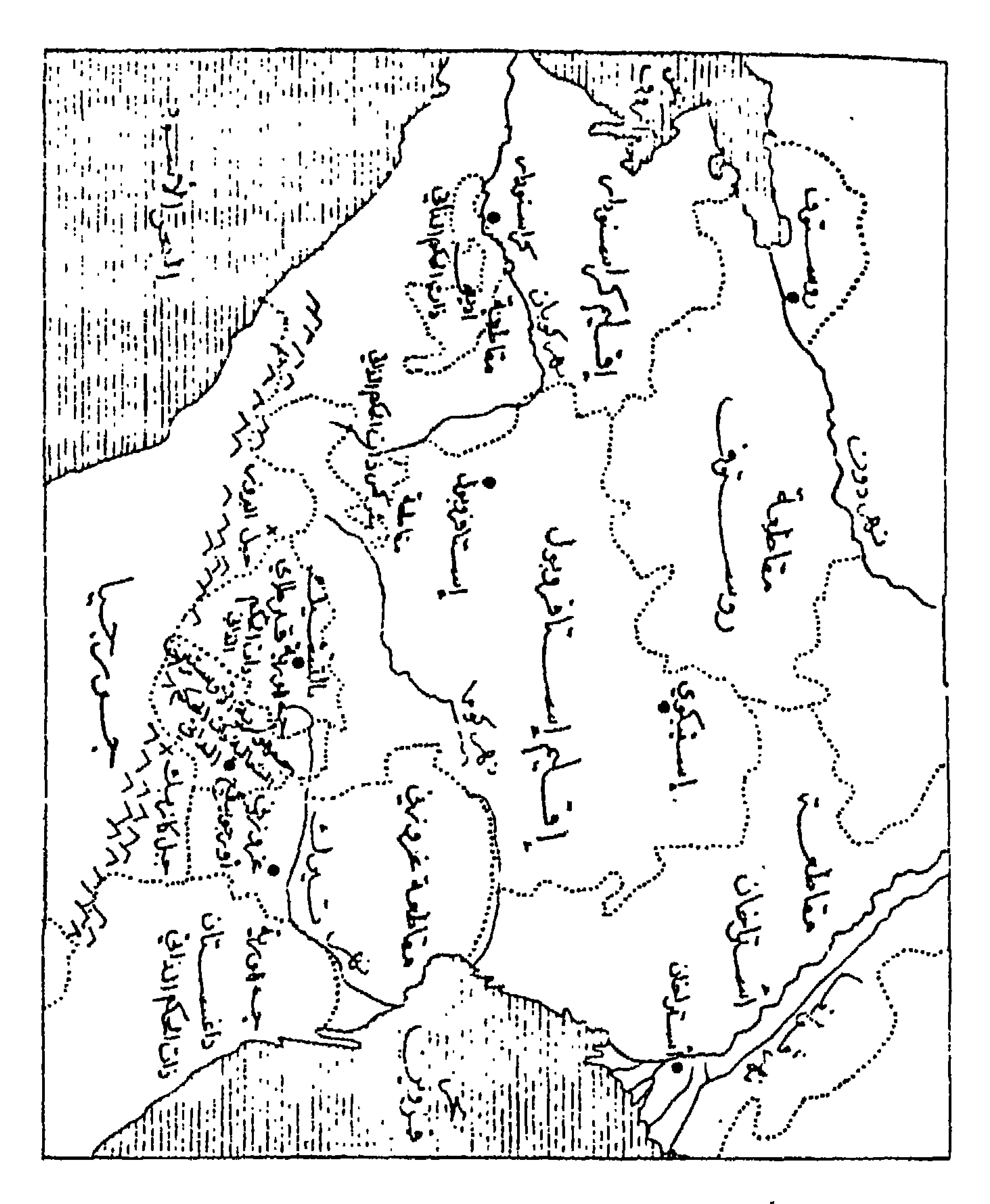
وقد أخذ تعداد أهالى الداغستان فى التناقص نتيجة جهادهم المتواصل ضد الروس ، فبلغ عدد الداغستانيين عند قيام ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧م الشيوعية نحو ثمانية ملايين ، وأصبحوا بعد مرور أكثر من ستين عاما مليونين ونصف مليون نسمة.

وكانت اللغة العربية قبل تلك الثورة الشيوعية أيضا هى اللغة الأولى فى الداغستان ، حيث اعتبرت قبائل اللزكى الداغستانية العربية هى لغتها الأساسية ، كتابة وخطابة ، كما

كانوا يفتخرون بأصولهم العربية . وساعد انتشار الإسلام على ترسيخ أوتاد اللغة العربية ، حتى بين القبائل التى ظلت تتحدث اللغة التركية ، فكان أهالى الداغستان يحرصون على تعاليم أطفالهم اللغة العربية ليقرأوا بها القرآن الكريم منذ نعومة أظفارهم . غير أن هذا الوضع الثقافى للداغستان تغير منذ إعلان روسيا لتلك البلاد - طبقا لتقسيماتها الإدارية - جمهورية فى ٢٠ يناير ١٩٢١م ، إذ فرض الروس حظرا على استخدام اللغة العربية على الأهالى ، وصارت اللهجات الداغستانية تكتب أولا بالحروف اللاتينية ، وأخيرا صارت منذ سنة ١٣٥٥ للهجرة / ١٩٣٥م تكتب بالحرف الروسى .

وقد حافظ أهالى الداغستان على جذورهم الإسلامية ، وكذل العربية ، بالرغم من قسوة الاستعمار الروسى وأساليبه فى البطش بكل من يظهر أى معلم إسلامى أو عربى . فقد أجرى استفتاء فى الداغستان سنة ١٩٧٤م ، أى بعد أكثر من خمسين عاما من الطغيان الشيوعى ومن التربية الإلحادية وأظهر فيه أكثر من ٦٨ بالمائة من أهالى الداغستان أنهم مؤمنون بالله ورسوله ، ومتمسكون بالإسلام .

ثانيا : جمهورية الشيشان والأنجوش ، تكونت هذه الجمهورة عام ١٣٥٤ للهجرة /١٩٣٤م ، وذلك بتوحيد " جمهورية الشيشان " التى تأسست عام ١٣٤١ للهجرة /١٩٣٢م ، مع "جمهورية الأنغوش " التى قامت سنة ١٩٢٤م وتقع هذه الجمهورية فى الأطراف الشرقية لمرتفعات القوقاز ، ويحدها



خريطة التقسيمات الإدارية في شمال القفقاس سنة ١٩٤٥

من الشرق جمهورية داغستان ، ومن الجنوب جورجيا ، ومن الغرب أوسيتيا الشمالية ، وعاصمتها جروزنى ، وتشغل رقعة مساحتها ١٩٣٠٠ كيلو متر مربع .

ويكسو غالبية بلاد هذه الجمهورية الغابات الكثيفة ، التى تتكون تسعة أعشارها من أشجار الزان . ولعبت هذه الغابات الكثيفة دورا هاما فى حياة الشيشان ، حيث صارت الملجأ الآمن لهم فى أوقات الضيق أو الأزمات التى تنزل بهم من قبل أى عدوان خارجى . وأدرك قادة الشيشان أهمية تلك الغابات فى الحفاظ على الحرية السياسية للشيشانيين ، وحرموا قطعها إلا بتصريح خاص وللضرورة القصوى ويقطع هذه الغابات عدد من الأنهار الصغيرة العميقة السريعة المجرى ، والتى تنبع من الجبال التى ترتفع سلاسلها فوق بعضها ، آخذة فى الارتفاع كلما اتجهت جنوبا ويصل ارتفاع هذه الجبال إلى ٤٤٩٣ مترا .

ويزيد عدد سكان هذه الجمهورية على ١ر٣مليون نسمة وقد سكن الشيشان على ضفاف الأنهار ، فى مزارع أو قرى تضم الواحدة منها مئات البيوت ، المبنية من الطوب المجفف فى الشمس ، تدعمه كتل من الخشب . ويتكون البيت من طابق واحد ، ذات سطوح مستوية ، ولكل بيت حديقة ، بحيث تمتد الحقول المزروعة حول القرية فى المناطق التى قطعت منها الغابات ، وكانت أطراف القرية تلاصق الغابات ، بحيث يسهل على أهاليها الحرب ، نساء وأطفالا حين يدهمهم خطر مفاجىء ويتسم الشيشان بطول القامة والنحافة وقوة البنية ، وهو

الأمرالذى أكسبهم وسامة غدت محط أنظار جيرانهم وإعجابهم . ويتميز الشيشانيون أيضا بالبديهة الحاضرة والشجاعة والكرم ، الذى يعتبرونه -على نحو ما هو معروف عند العرب- واجبا مقدسا ويعتنق الشيشان الإسلام على المذهب الشافعى ، فضلا عن انتمائهم الواسع للطرق الصوفية من النقشبندية والقادرية . وقد أهلت هذه الخصائص شعب الشيشان لأن يكون النواة لمجتمع إسلامى واسع تمتد سيادته على سائر أرجاء بلاد القوقاز .

وتنعم جمهورية الشيشان بموارد اقتصادية وافرة ، على رأسها البترول الذى يصدر كميات كبيرة منه إلى الخارج ، كما قامت على هذا البترول العديد من الصناعات الهامة ، مثل الصناعات البتروكيماوية والآلات ، فضلا عن الصناعات الغذائية ، والأجهزة الموسيقية . وإلى جانب النفط تتركز الزراعة فى حوض نهر تيرك ، حيث تجود زراعة الفاكهة والدخان .

وتشتمل اللغة الشيشانية على كثير من الألفاظ العربية إلى جانب الألفاظ الفارسية والتركية والروسية . وكانت تلك اللغة تكتب باللغة العربية ، حتى قام الروس فيما بين سنتى ١٩٢٨و١٩٣٨م باستبداله بالحروف الروسية " الكيريلية " غير أن الشيشان لم يستسلموا لطغيان الروس ، فكانوا يعلنون الثورة بعد الثورة على السلطات الروسية ، حتى كان آخرها إعلان الشيشان الاستقلال سنة ١٩٩١م عقب انهيار الاتحاد

السوفيتى ، وهو الدور الذى يبهر الأبصار اليوم بقوة المقاومة الشيشانية للغزو الروسى لجمهوريتهم الوليدة .

ثالثا : جمهورية أوسيتا الشمالية ، وقد تأسست سنة ١٣٥٥ للهجرة/١٩٣٦م ، بعد أن كانت مجرد إقليم له استقلال ذاتى . وقام الروس بفصل هذه الجمهورية الشمالية لكثرة المسلمين بها عن أوسيتا الجنوبية التى يكثر بها النصارى .وتبلغ مساحة أوسيتا الشمالية ٨٠٠٠ كيلومترمربع، وعدد سكانها ٦٣٤ألف نسمه، معظمهم من العناصر الشركسية ، وعاصمتهم مدينة " أوردجو نيكيرزى " .

ويتسم أهل أوستيا الشمالية بأنهم مقاتلون أشداء ، ومن المريدين بحماسة للطرق الصوفية ، وبخاصة الطريقة النقشبندية ، ويتبعون المذهب الحنفى .

رابعا : قابرديار بلكارديا ، وقد تأسست لأول مرة عام ١٣٤٠للهجرة/١٩٢١م باعتبارها منطقة مستقلة ، ثم تحولت إلى جمهورية مستقلة سنة ١٣٥٦ للهجرة/١٩٣٦م . وتبلغ مساحة تلك الجمهورية ١٢٫٥٠٠ كيلو متر مربع ، ولا يتعدى سكانها سبعمائة ألف نسمة ، ويعرفون باسم " قبرطاى " ، وهم قبيلتان " القابرد " و " البلكار " ، ويشتهرون بتربية الخيل . وعاصمة هذه الجمهورية هى " نلتشيك " .

خامسا : منطقة الأديجة ، وتأسست سنة١٣٤١للهجرة/١٩٢٢م باسم " منطقة الأديجة الشركس المستقلة " ، ثم تحول اسمها إلى " الأديجة سنة

١٣٥٦للهجرة/١٩٢٦م ، ومساحتها ٧٦٠٠ كيلو متر مربع عاصمتها " مايكوب " . ولا يتجاوز عدد سكانها النصف مليون وكانت لغة الأديجة تكتب بالحرف العربي ، ولكن قام الروس سنة ١٣٥٥ للهجرة/١٩٣٦م بتحويل الكتابة إلى الحرف الروسى " الكيريلى " .

سادسا : منطقة كاراتشاى - الجركس ، ونشأت هذه المنطقة فى ١٢ يناير سنة ١٩٢٢م ، وفى عام ١٩٢٦ قسمت إلى منطقتين هما : منطقة الكاراتشاى ذات الحكم الذاتى ومحافظة الجركس ، ثم أعيد تجميع هاتين المنطقتين مرة أخرى في ابريل سنة ١٩٢٨م وذلك تحت اسم " منطقة كاراتشاي الجركس " ذات الحكم الذاتى ، وتبلغ مساحة هذه المنطقة ١٤٫١٠٠ كيلومتر مربع ، وعدد سكانها أقل من نصف مليون .

الفصل الرابع

الصحوةالإسلامية في بلادالقوقاز

بدأت الصحوة الإسلامية فى بلاد القوقاز مع مطالع العصر الحديث لمناهضة الاستعمار الروسى ، وذلك سيرا على نفس الخطى التى قطعتها بلاد دار الإسلام الأخرى فى كل من آسيا وإفريقيا ضد المستعمر الأوروبى ، وهو الأمر الذى يؤكد وحدة الأهداف والغايات بين سائر المسلمين على اتساع دارهم وتعدد أوطانهم . واتخذت الصحوة فى بلاد القوقاز نفس الوسائل التى جرت عليها الصحوة فى البلاد الإسلامية الأخرى ، وذلك من حيث الدعوة إلى الاصلاح الدينى والثقافى والسياسى واتجه الاصلاح الدينى بين مسلمى القوقاز إلى الدعوة إلى إعادة فتح باب الاجتهاد لحل المشاكل العصرية ، والعودة مباشرة إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة لإيجاد الحلول التى تعترض حياة المسلمين . واتجهت النهضة الثقافية إلى بناء المدارس والمساجد باعتبارها مراكز للعلم وتلقيه بأمثل السبل ، أما الاصلاح السياسى فاتخذ الدعوة إلى المساواة بين المسلمين وسائر أبناء روسيا سبيلا للعمل ، وتأسيس الأحزاب السياسية ذات البرامج الواضحة للنهوض بمطالب المواطنين . وأدت هذه الظاهرة إلى ارتباط مفهوم القومية لدى مسلمى القوقاز وغيرهم من مسلمى روسيا - منذ وقت مبكر - بالإسلام ، بحيث أصبح الحفاظ على الإسلام هو الحفاظ على هوية الأمة وذاتيتها .

وحمل لواء تلك الصحوة الدينية والثقافية والسياسية ومفهومها الإسلامى أيضا فى بلاد القوقاز قادة من المتصوفة الذين انتشرت طرقهم منذ فترة مبكرة فى تلك البلاد ، وكانوا على درجة عالية من الاخلاص فى العمل مع الخبرة الواسعة بأحوال مواطنيهم وكانت تعاليم الصوفية قد ترسخت أقدامها فى مقاطعة شيرفان ببلاد القوقاز ، وهى تشغل الآن منطقتى "شماخا" و " غير كتشاى " فى ولاية باكو بالقوقاز واتخذت الصحوة الإسلامية التى قادها المتصوفة فى بلاد القوقاز المراحل التالية :

المرحلة الأولى من الصحوة فى بلاد القوقاز : وانطلقت من بين المتصوفة فى باكو ، حيث اشتهر منهم فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى السيد " يحيى " تلميذ "صدرالدين" ، الذى نعم بعطف كبير من شاه شيرفان ، حتى كثرت أعداد مريديه ، وبلغت عشرة آلاف مريد . وقد صارت شيرفان مركزا هاما من مراكز الطريقة النقشبندية ، ومنها انتقلت إلى إقليم الداغستان والشيشان ، وصار أتباعها فى هذين المكانين يكونون حركة عرفت باسم " المريدية " نسبة إلى أنهم من مريدى مشايخ الطرق الصوفية .

واستهدفت حركة المريدية بصحوتها فى بلاد القوقاز إلى الاصلاح الدينى فى إطار الشريعة الإسلامية ، التى تنادى بالمساواة بين المسلمين الفقراء منهم والأغنياء . ولقيت حركة المريدية قبولا شعبيا من أهالى القوقاز ، ولا سيما أنها دعت الى

جانب الاصلاح الدينى بالتحرر من ربقة الاستعمار الروسى وطغيانه الجاسم على أنفاس المواطنين بالقوقاز . وصار الجهاد هو الطابع الذى حمل لواءه المتصوفة لتحرير بلاد القوقاز وقيادة الصحوة الاسلامية فى تلك البلاد .

وأول من نادى بالجهاد ضد الروس الشيخ منصور "أشرمة" ، الذى أدخل الطريقة النقشبندية الى بلاد القوقاز فى القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى . وهذا القائد الرائد للصحوة الإسلامية ببلاد القوقاز من مواليد " الدى " فى الشيشان ، ثم تلقى علومه فى بخاري ، ودرس القرآن الكريم فى داغستان . ويروى عنه الشيشانيون وشعوب القوقاز أنه رأى الرسول الكريم فى منامه يحضه على الجهاد ضد الروس ، وأن هذه الرؤيا تكررت ثلاث ليال متتاليات . وقد حدث الشيخ أقرباءه بهذه الرؤيا ، وهو الأمر الذى صادف عندهم قبولا ، وطالبوه بتنفيذ ما أمره الرسول الكريم به . واستجاب الشيخ منصور لرجاء مواطنيه ، وأعلن الثورة ضد الروس سنة ١٧٨٥م باعتبارها " الجهاد الواجب " لتحقيق الصحوة الإسلامية فى بلاد القوقاز .

وفوجئت روسيا القيصرية بتلك الصحوة الإسلامية فى بلاد القوقاز ، وسرعة استجابة المسلمين فى تلك البلاد لندائها ، حيث كان الإسلام قد استقرت أوتاده ، وصار قوة دافعة فى حياة الناس على اختلاف أوطانهم ومشاربهم ، إذ سرعان ما تجاوبت شعوب الشيشان والداغستان والقبرطاى والنوغاى مع دعوة

الشيخ منصور ، التى صارت تعرف باسم الحركة النقشبندية. وجاءت تلك الوحدة بين مسلمى شمال القوقاز تحت قيادة الشيخ منصور سبيلا أتاح للدولة العثمانية التصدى للزحف الروسى على الوجود التركى فى شبه جزيرة القرم والأجزاء الشمالية من القوقاز وكانت روسيا قد هاجمت سنة ١٧٨٧م قلعة " انابا " على ساحل البحر الأسود ، وهو الأمر الذى جمل الدولة العثمانية على طلب مساعدة الشيخ منصور ، زعيم القوقاز ، ضد الروس .

وبادر الشيخ منصور بتلبية طلب الدولة العثمانية ، وشن هجوما من الخلف على القوات الروسية فى " منطقة أوبون " وقتل ثلاثة آلاف جندى روسى فى المعركة التى دارت رحاها إذذاك واضطرت السلطات الروسية أمام شدة وطأة تلك الهزيمة أن تعزل " الجنرال توكالى " قائد القوات التى هاجمت قلعة أنابا ونصبت بدلا منه الجنرال " بيكوف " . واستطاعت الدولة العثمانية أن تستفيد من نشاط الشيخ منصور الحربى وبعثت بتعزيزات إلى قلعة أنابا قوامها ثلاثون ألف جندى تحت قيادة حسين باشا (بطال باشا) واستطاعت القوات العثمانية بمؤازرة قوات الشيخ منصور الصمود فى قلعة أنابا ، حيث عجز القائد الروسى " بيكوف " عن الاستيلاء على القلعة . واضطرت السلطات الروسية مرة أخرى إلى عزل القائد بيكوف وتعيين خلف له للهجوم على أنابا وهو القائد " بيلمان" .

ووجد الشيخ منصور أن أمثل طريق لمواجهة هذا التغيير فى السياسة الروسية تجاه قلعة أنابا هو العودة للعمل على مهاجمة الصفوف الخلفية للقوات الروسية . ومن ثم قال بتنسيق مع القوات العثمانية، بالخروج من قلعة أنابا ومعه مقاتلوه ، ليهاجم أحد مساعدى القائد الروسى " بيلمان " وهو "الجنرال جيرمانين " على أن تبادر القوات العثمانية بمؤازرة الشيخ منصور وهو ملتحم فى قتال الروس خارج قلعة أنابا . وجرت معركة " كبيروسكوى " بين الشيخ منصور والقوات الروسية ، اضطر فيها إلى الانسحاب بقواته لأن الدولة العثمانية عجزت عن تنفيذ الخطة الخاصة بارسال التعزيزات المقرر إرسالها له .

وكان انسحاب الشيخ منصور مناورة ناجحة لإعادة تعبئة صفوفه ، إذ سرعان ما عاد إلى أرض المعركة وشن هجوما واسعا على القائد الروسى " جيرمانين " واضطره إلى الانسحاب من حصار قلعة أنابا . غير أن الامبراطورة كاترين التى كانت تحكم روسيا إذ ذاك قد ساءها هذا الانتصار الذى ناله الشيخ منصور على القوات الروسية ، وأرسلت قوات روسية كبيرة تحت قيادة " الجنرال غوردوفيتش إلى قلعة أنابا " لمهاجمة التحالف بين الأتراك العثمانيين والشيخ منصور واستطاعت القوات الروسية اقتحام قلعة أنابا يوم ١٧٩١/٦/٢٢ ، حيث قام الأتراك بمفاوضة الروس على الاستسلام . واحتج الشيخ منصور على هذا الإجراء العثمانى وحث العثمانيين دون جدوى على مواصلة

القتال ، ولذا نهض الشيخ منصور ومقاتلوه وحدهم بعبء التصدى للقوات الروسية التى دخلت قلعة أنابا ، وحارب فى بسالة منقطعة النظير حتى سقط جريحا على أرض المعركة ، شأن الأبطال العظام الذين لا يهابون الموت فى سبيل الدفاع عن أوطانهم . وقد تم أسر الشيخ منصور ، حيث استشهد فى " سجن شليسبرج " فى ابريل سنة ١٧٩٤ ، وذلك بعد أن قاد الصحوة الإسلامية فى بلاد القوقاز وذلك على امتداد ست سنوات من الجهاد المتواصل ، أظهر خلاله فرسان القوقاز من الشيشان والداغستان والنوغاى والشراكسة كل ألوان البطولة والمهارة الحربية ، مع الصمود الرائع .

المرحلة الثانية من الصحوة الإسلامية فى بلاد القوقاز :

وقامت رد فعل للزحف الاستعمارى الروسى على بلاد القوقاز التى قرر القيصر " الكسندر الأول " احتلالها احتلالا كاملا فى مطالع القرن التاسع عشر الميلادى وذلك حين اختار القائد الروسى " يرسلوف " سنة ١٨١٨م لإخضاع بلاد الشيشان ، رغبة فى الانتقاص من شأن تلك البلاد التى ارتفع شأنها نتيجة الصحوة التى انطلقت منها تحت قيادة الشيخ منصور . وبدأ القائد الروسى أعماله باختيار قرية شيشانية على ضفاف نهر السونجا، واسمها " سونجار غالا " ، أى قلعة سونجار (لأن غالا كلمة شيشانية تعنى الحصن) وقام بهدمها ، وبنى على أنقاضها قلعة ضخمة أطلق عليها اسم " جروزنى " ، وهى كلمة روسية تعنى الرهيب ، تهديدا لشعب الشيشان ، وإحياء لذكرى إيفان

الرهيب مؤسس روسيا القيصرية ، وحامل لواء الزحف المبكر على أراضى المسلمين فى بلاد الفولجا .

واتخذت الجيوش الروسية فعلا من جروزنى نقطة انطلاق لعملياتها الحربية فى بلاد الشيشان ، حيث اتخذت أسلوب "الأرض المحروقة" لتدمير الشيشان ، وإنزال الفزع فى نفوس الأهالى . ولم تفلح تلك الأعمال الرهيبة فى النيل من أهل الشيشان ، مما اضطر القيصر " نيقولا " الذى خلف والده القيصر الكسندر الأول إلى عزل القائد الروسى " يرسلوف " سنة ١٨٢٧م . وبعد ثلاثة أعوام أى فى سنة ١٨٣٠م اندلعت الثورة بقيادة القاضى الملا محمد فى الداغستان . وقد ولد هذا الزعيم فى " غمرى " بالداغستان سنة ١٧٩٣م ، وتعلم اللغة العربية ، واشتهر بإخلاصه الشديد لبلاده وغيرته عليها من الاستعمار الروسى لأرجائها . ومن ثم لم يرض عن تقاعس أمراء داغستان فى التصدى للاستعمار الروسى ، وأصدر كتابا سماه " إقامة البرهان على ارتداد عرفاء طاغستان " ، ثم أعلن الجهاد متخذا له اسم " الغازى محمد " .

وجعل الملا غازى مقره فى مدينة "غمرى" فى بلاد الداغستان ، وذلك رد فعل لتحركات الروس الحربية ، والتصدى لأعمالها الوحشية . فتابع الإمام غازى ملا الصحوة الإسلامية التى نهض بها أسلافه من قادة الحركة المريدية الإسلامية ، واستطاع تدمير العديد من الوحدات العسكرية الروسية ، كما تمكن من اختراق خط القوقاز الذى أقامه الروس ، وهاجم مدنا عديدة وراء نهر

"تيرك" غير أن القوات الروسية تمكنت أخيرا من الاستيلاء على " غمرى " عاصمة المريدين ، حيث استشهد الإمام غازى ملا. وقد تسلم القيادة المريدية من بعد غازى ملا تلميذه الإمام حمزة ، الذى ولد بمدينة " تيوجوتساتل " سنة ١٧٨٩م ، كما تعلم اللغة العربية ودرس القرآن الكريم فى مدينة " تشوخ " . وقد أصبح واحدا من أكثر أتباع غازى ملا حماسة ، وتولى بعده الإمامة ومقاومة الاحتلال الروسى . غير أنه لم يلبث أن استشهد بدوره فى ١٩ يونيو سنة ١٨٣٤م ، بعد فترة رائعة من الجهاد .

ووجدت الصحوة الإسلامية فى تلك المرحلة الثانية فى بلاد القوقاز خير خلف لكل من الإمام غازى ملا ، وكذلك حمزة فى الإمام " شامل " الذى ولد سنة ١٧٩٧م فى مدينة غمرى بداغستان ، ثم تلقى مبادىء المريديه على يد " غازى ملا " ، وأخيرا آلت إليه قيادة الحركة المريدية الإسلامية ببلاد القوقاز سنة ١٨٣٤م . وقد نظم الشيخ شامل قصيدة صوفية لأتباعه المجاهدين لتحل محل الأناشيد الدينية التى كانت شائعة فى أيامه ، وجاء فى تلك القصيدة الصوفية ما يلى :

يا الله ......
اعطنا ما نتمنى من غايات ،
لكى تبتسم لنا السعادة ،
ونستريح فى ظل الله ،
إكراماً لله ،
نحن عبادك التعساء ،

لا نرفع تسبيحنا إلا لك ،
إكراماً لله .
استمعنا لمشيئتك يا رب ،
إنها مبتغانا ومرادنا ،
واسمك هو عدتنا ،
وتسبيحك سلاحنا ،
لأجل الله .

واستطاع الإمام شامل القيام بأعباء الصحوة الإسلامية وجهاد الروس حتى سنة ١٨٣٩م حين تمكنت القوات الروسية من هزيمة أتباعه فى بلدة " أضولكو " باقليم " أفاريا بالداغستان" غير أن الإمام شامل استطاع النجاة مع عشرة من حرسه الخاص ، وعاد مرة أخرى بعد سنة واحدة من هزيمته لقيادة الصحوة الإسلامية ، متخذا من بلاد الشيشان مركزا لثورته ولعملياته الحربية وتدفق المقاتلون الشيشان من الجبال على الإمام شامل ، حيث وجدوا فيه الزعيم والقائد القادر على تحقيق آمالهم فى التحرر من ربقة الروس " الغارو " " الجارو " أو " الغازقى " ، وهى كلمات تعنى الكافر بالداغستانية والشيشانية على التوالى .

وتمكن الإمام شامل من استرداد إقليم آفاريا وكذلك معظم بلاد الداغستان فيما بين سنتى ١٨٤٠ و ١٨٤٢م ، وأن يطهرها من العناصر التى استقطبها الروس إليهم فى تلك النواحى . وحفزت هذه الانتصارات الشراكسة فى الشمال الغربى من

القوقاز على إعلان الثورة على الروس ، والقيام بغارات على القلاع الروسية التى تقع على البحر الأسود من بلادهم ، وأبادوا الكثير من حامياتها حتى صار الموقف حرجا بالنسبة للروس فى بلاد القوقاز وظل الإمام شامل يتابع رعاية الصحوة الإسلامية ببلاد القوقاز. من مقر قيادته ، الذى اتخذه فى عاصمته " دارغو " بالشمال الشرقى للشيشان .

وأجاد الإمام شامل تنظيم حركة المقاومة القوقازية للزحف الروسى حيث أعد العدة له القيصر " نيقولا " ، الذى استهدف تعبئة أكبر قدر ممكن من قواته للاستيلاء على " دارغو " عاصمة الإمام شامل نفسه . وكان قيصر روسيا قد عهد بقواته التى بلغ عددها عشرة آلاف رجل إلى القائد " غراب " الذى سبق له الانتصار على الإمام شامل فى معركة " أضولكو " سنة ١٨٣٩م . وجرت خطة الإمام شامل فى تعبئة قواته على أساس حشد ألفين من رجاله على امتداد الطريق إلى عاصمته " دارغو " ، حيث عهد بقيادتهم إلى نائبه " شعيب " الذى اشتهر بقدرته على حرب العصابات . إذ أمر شعيب رجاله باعتلاء أشجار البلوط العملاقة التى تقع على جانبى الطريق إلى " دارغو " ، حيث كانت الواحدة منها تتسع لأن يعتليها ما بين ثلاثين إلى أربعين رجلا ، وحولها بالتالى إلى أبراج دفاعية مرتجلة ، مهمتها صب النار على القوات الروسية الزاحفة على " دارغو " .

ودارت رحى معركة شرسة بين قوات الإمام شامل من حصونها الدفاعية بأعالى شجر البلوط وبين القوات الروسية

الزاحفة ، التى عجزت رشقات نيرانها عن النيل من خطوط الدفاع القوقازية ، وغدت تعانى من ويلات القتال ، وبخاصة أنها كانت بدون ماء . واضطرت القوات الروسية إلى الانسحاب وهى فى حالة فوضى شديدة ، ونزلت بها هزيمة فادحة ، تكبدت فيها خسائر بالغة سواء من حيث الأرواح أو المعدات ، بلغت ستة وستين ضابطا وأكثر من ألف وسبعمائة جندى بين قتيل وجريح ، فضلا عن ضياع التجهيزات التى كان الروس يحملونها معهم .

وأدى هذا النصر الذى ناله شعيب ، نائب الإمام شامل على قوات الروس إلى تعزيز الصحوة الإسلامية التى يقودها الإمام شامل ، وانتقاله فى شمال القوقاز من الدفاع إلى الهجوم الشامل على الروس . فصارت القلاع الروسية والحصون فى شمال القوقاز ، فيما بين سنة ١٨٤٣و١٨٤٤ ، عرضة للهجمات الخاطفة التى شنتها قوات المريدين القوقازية بحيث بلغت خسائرها ما يقرب من ثلاثة آلاف قتيل ، وضياع أكثر من اثنى عشر حصنا من حصونها المنيعة .

واستطاع الإمام شامل أن يتصدى بحسن تعبئته لصفوف قواته من التصدى للحملة الكبرى التى أعدها قيصر روسيا للانتقام مما لحق بقواته من خسائر على يد رجال الحركة المريدية القوقازية إذ وحد الروس قواتهم بالقوقاز ، حيث جمعوا بين قواتهم المحاربة فى كل من الشيشان والداغستان ، وعززوها بقوات إضافية ، وعهدوا بالقيادة العليا لأشهر قادتها وهو

الجنرال " فورنستوف " ، الذى عمد إلى إضفاء معالم الهيبة على حملته عددا وعدة . فاستطاع أن يحشد تحت قيادته أكثر من ثمانى عشرة ألف جندى ، بالاضافة إلى حرسه الخاص من الفرسان الأكراد المزودين بالسلاح وعليهم الملابس المزركشة . وضم القائد الروسى أيضا إلى جيشه نخبة من كبار العائلات الروسية إمعانا فى إضفاء الهيبة على زحفه المقبل ، منهم الأمير " الكسندر دراشلوت " والأمير " بوتجنشتين " وهما من أقرباء القيصر ، وأمير وارسو البولندى ، بالاضافة إلى اثنين من كبار قادة جيش القيصر ، وهما " كلوضلو " والجنرال "باسك" الذى كان يلقب بلقب " أشجع الشجعان " .

وواجه الإمام شامل هذا الحشد الروسى بخطة عالية من حرب العصابات ، وذلك حين تقدمت القوات الروسية على عاصمته " دراغو " فى ١٨٤٥/٦/١٦ ، إذ دارت حرب حواجز ومتاريس حين اقتحمت القوات الروسية البلدة ، وعندما سقطت المدينة فى أيديهم فى السابع من شهر يوليو غادر شامل عاصمته بعد أن تم حرقها وتسويتها بالأرض ليحول بين الروس وبين الإفادة مما حققوه من نصر . ثم وضع خطة لمواصلة حرب العصابات ضد الروس الذين قرروا الانسحاب من " دراغو " ، وأنزل هزيمة فادحة بالقوات الروسية وهى فى طريق الانسحاب ، حتى إنه لم يعد من تلك القوات البالغ عددها أكثر من ثمانى عشرة ألف مقاتل سوى خمسة آلاف ، معظمهم من الجرحى . وكان من بين القتلى الروس " أشجع الشجعان نفسه"

وهو " الجنرال باسك " ، وذلك على حين لم ينج القائد الروسى العام " فورنستوف " إلا بعد أن وصلته نجدة سريعة .

وظل الإمام شامل يقود الصحوة القوقازية حتى سنة ١٨٥٩ حيث تمكن أثناءها من مساعدة الدولة العثمانية فى حروبها ضد روسيا فعندما شبت حرب القرم سنة ١٨٥٣م قام الإمام شامل بمهاجمة جورجيا ، وهو الأمر الذى اضطر الروس إلى سحب جزء كبير من قواتهم من الجهة التركية ، كما ساعد القبائل فى أبخازيا حين تصدت للقوات الروسية الزاحفة على بلادهم ولم تستطع روسيا أن تواجه حركة الإمام شامل إلا بعد سنة ١٨٥٦م حين انتهت حرب " القرم " ، حيث تمكن الأمير الروسى "ياريسكى" ولى عهد القيصر من هزيمة الإمام شامل فى معركة " غونتيب " فى إقليم الداغستان سنة ١٢٧٩ للهجرة/١٨٥٩م . وقد تم نفى الشيخ شامل بعد أسره إلى تركيا ، حيث ذهب منها إلى المدينة المنورة ، التى توفى بها سنة ١٢٨٩ للهجرة/١٨٧١م ، ودفن بالبقيع مع الشهداء والصديقين المسلمين .

وترتب على حركة الإمام شامل بقاء الحكم الروسى فى بلاد القوقاز مزعزعا ، دون أن تستقر أوتاده ، إذ ظلت المقاومة القوقازية عنيفة ، وبخاصة بين الشراكسه الذين تمتعوا باستقلال كامل فى المناطق التى تقع حول نهر الكوبان ولم تستطع روسيا إخضاع الجراكسة إلا سنة ١٨٦٢م ، حيث قامت بطرد أكثر من ستمائة ألف شركسى من بلادهم وقامت روسيا أيضا بتهجير عدد كبير من الشيشان إلى جانب الجركس ، اتجه معظم أفرادها إلى سوريا وفلسطين .

غير أن الصحوة القوقازية ظلت تؤرق الروس بالرغم من أعمالهم العدوانية الواسعة ، إذ توالت حركات التحرر التى انطلقت من بلاد الشيشان تحت قيادة الزعيم الشيشانى " باى صونقور " والزعيم الشيشانى " أومادوييف " ، ثم حركة " آطابى آطاييف " و " دارة زالماييف " ، وأخيرا حركة الزعيم الشيشانى " على بك حاجى " الذى هزمه الروس وأعدموه فى العاصمة جروزنى سنة ١٨٧٨م . وظلت روسيا لا تهنأ بوجودها فى بلاد القوقاز بسبب الصحوة الإسلامية التى قادتها " حركة المريدية " ، حتى انتهى عهد روسيا القيصرية وقيام روسيا البلشفية سنة ١٩١٧م .

المرحلة الثالثة من الصحوة الإسلامية فى بلاد القوقاز :

بدأت فى الأيام الأخيرة من حكم القياصرة لروسيا ، وذلك حين أعلن " البرلمان الروسى - الأول - " (الدوما) سنة ١٣٢٣للهجرة / ١٩٠٥م الحرية الدينية التامة لجميع الشعوب فى روسيا ، وإباحة تأسيس الأحزاب السياسية . فقد شارك أهل القوقاز أقرانهم من مسلمى روسيا عقد المؤتمر الإسلامى السرى الأول فى نييجى نوفوجورد فى أغسطس سنة ١٩٠٥م/١٣٢٣للهجرة ، حيث صدرت توصياته بالمطالبة بالحقوق المدنية الشخصية وبالمساواة الوطنية مع الروس وتأكدت مشاركة أهالى القوقاز مع أقرانهم من مسلمى روسيا فى المؤتمرين الإسلاميين اللذين عقدا فى سان بيترسبورج (١٣ يناير ١٩٠٦م/١٣٢٤للهجرة ، وكذلك فى المؤتمر الثالث الذى عقد علنا فى العام التالى فى

مدينة نييجى نوفجورد ، وتقرر فيه قيام حزب سياسى إسلامى لكافة المسلمين فى روسيا القيصرية .

وبدأ هذا الحزب الإسلامى نشاطه متواضعا ، حيث اقتصرت طلباته على حرية التدين وحرية التعليم ، كما عرض تعاونه مع الروس بشرط الموافقة على طلباته . غير أن حكومة روسيا القيصرية هالها اندفاع الصحوة الإسلامية ، واتساع آفاقها ، وذلك على نحو ما جاء فى تقرير أصدره وزير الداخلية الروسى سنة ١٣٢٤ للهجرة/١٩٠٦م ، أى بعد عام واحد فقط من منح الحرية الدينية ، حذر فيه من إعطاء المناطق الإسلامية حرية تكوين جمعيات سياسية ودينية ، ويأمر بإلقاء القبض على دعاة هذه الحركات باعتبارهم خارجين على القانون بتهمة جواسيس وعملاء للدولة العثمانية . ووصل الموقف الروسى أشده ضد الصحوة الإسلامية حين أصدر القيصر نيقولا الثانى قرارا فى سنة ١٣٢٥ للهجرة/يونيو ١٩١٠م بحل البرلمان الروسى ، الذى أباح الحرية الدينية وتشكيل البرلمان الجديد (الدوما الثانى) على أن يقل عدد الممثلين للمسلمين فيه من خمسة وثلاثين شخصا إلى ستة أشخاص فقط .

وتابعت السلطات الروسية الحملة على الصحوة الإسلامية حيث أصدر رئيس الوزراء " ستولينين " منشورا سنة ١٣٢٨للهجرة/١٩١٠م ، كشف فيه عن تخوفه من نجاح تلك الصحوة قائلا : " إن الصراع القائم بين العالمين المسيحى والإسلامى لم ينشأ لسبب دينى فقط بل علينا أن ندرك أنه

صراع له طبيعة سياسية وثقافية دولية . وهنا يكمن بالتأكيد السر فى النجاح الذى أحرزته الدعوة الإسلامية فى الآونة الأخيرة . وإن لنجاح هذه الدعوة فى وطننا روسيا لخطورة كبرى . إن مسلمى روسيا وإن كانوا ينقسمون فيما بينهم إلى شعوب وقبائل مختلفة تتحدث بلهجات تختلف عن بعضها بعض الاختلاف ، إلا أننا يجب ألا ننسى اطلاقا أنهم جميعا من أصل تركى واحد يتحدث الجميع نفس لغته " .

وظلت الصحوة الإسلامية تواجه أساليب الروس العدائية ، وبخاصة حين قام البرلمان الرابع (الدوما) فى مارس سنة ١٣٣٦ للهجرة/١٩١٧م ، بالثورة ضد استبداد القيصر نيقولا الثانى ، وأطاح به ، وتكوين الحكومة المؤقتة برئاسة الأمير ليفنوف وكرينسكى ، وإعلان قيام روسيا الليبرالية الديمقراطية . ذلك أن هذه الحكومة الجديدة أعلنت معارضتها لإعطاء أى نوع من الاستقلال لمسلمى روسيا ، كما وقفت فى صف انجلترا وفرنسا فى عدائهما للمسلمين ، ووافقت على المعاهدات السرية التى سبق لهاتين الدولتين عقدها مع قياصرة روسيا لتقسيم العالم الإسلامى فيما بينهم .

غير أن موازين القوى السياسية انقلبت فى ذلك الوقت حين قامت فى روسيا ثورة اكتوبر سنة ١٣٣٦ للهجرة/١٩١٧م بقيادة لينين ، الذى أخذ يتقرب إلى المسلمين فى روسيا لمساعدته فى ثورته ضد حكومة روسيا الليبرالية برئاسة كرينسكى . وضرب لينين المسلمين على الوتر الحساس ، وهو

إصدار البيانات التى تحمل لهم الوعود البراقة باقتراب خلاصهم من طغيان قياصرة الروس ، وأنه معهم كذلك ضد الفرنسيين والانجليز الذين استباحوا لأنفسهم الاتفاق مع قياصرة روسيا لاقتسام العالم الإسلامى فيما بينهم إذ أعلن لينين فى ذلك الوقت رفضه لمحاولات القياصرة وحلفائهم مع الفرنسيين والألمان لتقسيم القوقاز قائلا فى هجومه على حكومة روسيا الليبرالية : " إذا كان للثورة الديمقراطية فى روسيا أن تبقى ديمقراطية بالفعل وليس بالكلام فقط فإن عليها أن تتحرك بالثورة إلى الإمام لا إلى الاتفاق مع الرأسماليين على السلام بدون احتلال أو غرامات على الشعوب المهضومة ، بل إلى أن تعلن بكل صراحة أن احتلال أى أرض ليس إلا إجراءً بربرياً وإجرامياً ، وبهذا نحمى آلاف الملايين من الشعوب المنكوبة من نير الدول الامبريالية . وإنا نرفض تقسيم القوقاس وإيران بين الدول الكبرى .

وصدق المسلمون وعود لينين لهم بالحرية السياسية والاستقلال وناصروا ثورته . وكان الإنجليز قد احتلوا بلاد القوقاز فى نهاية الحرب العظمى الأولى ، ووعدوا أهاليها بالاستقلال . غير أن الإنجليز نكثوا بعهودهم ، على نحو ما قاموا به مع المسلمين فى بلاد الشرق الإسلامى ، وقاموا بتسليم القوقاس بأكمله لقوات الأمير كولشاك وقائده دينيكين اللذين أقاما حكومة روسيا الليبيرالية . وعندئذ قامت الثورة فى بلاد القوقاز ، استجابة لنداء لينين ، بقيادة الإمام الداغستانى نجم

الدين غوتسو الذى عرفه الروس باسم غوتسنسكى ، وذلك فى نهاية سنة ١٣٣٦ للهجرة/١٩١٧م وكان هذا الإمام من شيوخ الطريقة النقشبندية التى سبق لرجالها قيادة الصحوة الإسلامية فى بلاد القوقاز واستمرت تلك الثورة ، حيث تكونت حكومة إسلامية فى الداغستان ، كما أعلن القوقاز استقلاله فى مايو سنة ١٣٣٧ للهجرة/١٩١٨م ، وتبعته جورجيا بعد بضعة أسابيع وأخذ شعب القوقاز يناضل تحت قيادة نجم الدين غوتسو ، ورفيقه الشيخ الصوفى أوزون حجى سيطرة روسيا الليبيرالية ، عدوة لينين آنذاك ولكن ما كاد لينين يحصل على النصر حتى احتل الداغستان فى ربيع سنة ١٣٣٩ للهجرة/ ١٩٢٠م . وعندئذ انقلب نجم الدين غوتسو إلى الثورة ضد روسيا البلشفية ، وتابع النضال من أجل تحرير القوقاز وظلت تلك الثورة قائمة حتى سنة ١٣٤٤ للهجرة/١٩٢٥م ، حيث وقع نجم الدين غوتسو أسيرا وأعدم فورا .

وكان لينين قد كشف أيضا من قبل عن خداعه للمسلمين حين بادر بالتصدى للصحوة الإسلامية ، وذلك قبيل استقرار الأوضاع له فى روسيا إذ أرسل مجموعة من الإرهابيين الروس لإثارة مخاوف المستعمرين الروس الذين استقروا فى بلاد القوقاز ، وقاموا بمذبحة كبرى سنة ١٩١٨/١٣٣٧م فى مدينة باكو ، راح ضحيتها فى تلك البلدة وحدها نحو ١٨ر٠٠٠مسلم . غير أن المجاهدين فى القوقاز استطاعوا إيقاف تلك المذبحة بمساعدة القوات العثمانية التى وصلتهم تحت قيادة نورى باشا،

ناظر الحربية السابق فى تركيا ، وأعلنوا قيام جمهورية أذربيجان ، التى اعترف بها لينين نفسه مؤقتا ، ريثما ينتهى من نجاح ثورته .

وقد استمر لينين فى سياسة الخداع للمسلمين حين قرر اتخاذ بلاد القوقاز مركزا لعقد مؤتمر فى مدينة باكو فى أغسطس ١٩٢٠م/١٣٣٩ للهجرة ، ووجه الدعوة فيه إلى العمال والفلاحين فى سائر أرجاء العالم الإسلامى للحضور إلى باكو ببلاد القوقاز ، التى أطلق عليه اسم " المكان المقدس " ، إذ جاء فى نهاية دعوته القول للعمال والفلاحين المسلمين : " استخفوا بمصاعب السفر وجوبوا الفيافى والقفار حتى تصلوا إلى هذا المكان المقدس ، الذى فيه تستطيعون العمل فى سبيل إحياء ماضيكم المجيد وإقامة شرائع دينكم القويم " .

وبدأ لينين حملته على المناطق الإسلامية فى إبريل سنة ١٩١٨م بعد أن استتب له الحكم فى روسيا بالقضاء على حكم القياصرة . ثم اشتد الهجوم الروسى على الصحوة الإسلامية من عام ١٩٢٨ إلى إعلان الحرب العظمى الثانية ، حيث اضطر خليفة لينين ، وهو ستالين إلى مهادنة العناصر الدينية بعد أن توالت عليه الهزائم والضربات من جانب الألمان ، إذ عمد ستالين إلى سياسة الخداع الروسية مرة أخرى لتقوية جبهة القتال والدفاع عن روسيا . فاستعان بأبناء القوقاز من الشيشان والأنجوش المشهورين بالفروسية فى تكوين فرقه العسكرية التى تصدت للهجوم الألمانى على روسيا وقدر عدد

القتلى من أبناء هاتين المجموعتين بما يزيد عن ثلاثين ألف مقاتل ، كما نال بعض ضباط الشيشان والأنجوش ميداليات البطولة السوفيتية ، ومنهم " بيبالاتوف " و " أدريسوف " و"محمد ميرزاوف " و " متاس مازوف " وغيرهم من الأبطال .

ولكن بنهاية تلك الحرب وانتصار روسيا تنكر ستالين لهذه المساعدات من جانب فرسان القوقاز الأبطال ، وعاد فى سنة ١٩٤٤م إلى سياسة رهيبة قوامها تشريد شعوب القوقاز ، والعمل على اجتثاثها من أوطانها ، تحت ستار الاتهام الباطل الذى لفقه لهم ، وهو اتهامهم بمساعدة الألمان فى هجومهم على روسيا ، وذلك على نحو ما قام به نحو شعوب روسيا الإسلامية الأخرى ، ومنها شعب القرم . وكان مما تعرضت له شعوب القوقاز وغيرها من شعوب المسلمين ما يلى :

١ - قام ستالين بنفى شعوب الكاراتشى التى تقطن شمال القوقاس إلى سيبيريا .
٢ - نفى ستالين شعب البلكار إلى مجاهل سيبيريا .
٣ - أفرط ستالين فى نفى شعب الشاشان الذى يعيش فى شمال القوقاز ، حيث قام بتشريده بأكمله إلى سيبيريا بعد أن أباد العشرات منهم .

ووصف شاهد عيان ما حدث لشعب الشيشان وغيره من شعوب القوقاز المسلمة قائلا :

" فى ٢٠ فبراير ١٩٤٤م وصل الوزير الروسى بريا وصحبه من كبار الضباط إلى جروزنى للإشراف على الترحيل الجماعى

لقبائل الشيشان والأنجوش الذين حملوا فى عربات السكك الحديدية الخاصة بالبضائع والحيوانات إلى أراضى البرارى فى شمال جمهورية قازاخستان ، ثم غير اسم هذه الجمهورية إلى إقليم جروزنى ، بعد ضم الكثير من أراضى هذه الجمهورية إلى جمهورية جورجيا وأوستيا المجاورة لهم . ولقد بلغ عدد جماعات الشيشان والأنجوش الذين وصلوا قازاخستان ٤٠٦ر٠٠٠ شخص عام ١٩٤٤م ، والذين وصلوا قرغيزيا ٩٠ر٠٠٠ شخص ، ويضاف إلى هؤلاء الألوف ممن جردوا من رتبهم العسكرية فى الجيش الأحمر الروسى بعد عام ١٩٤٤م ، ثم أرسلوا بعد ذلك إلى قازاخستان " .

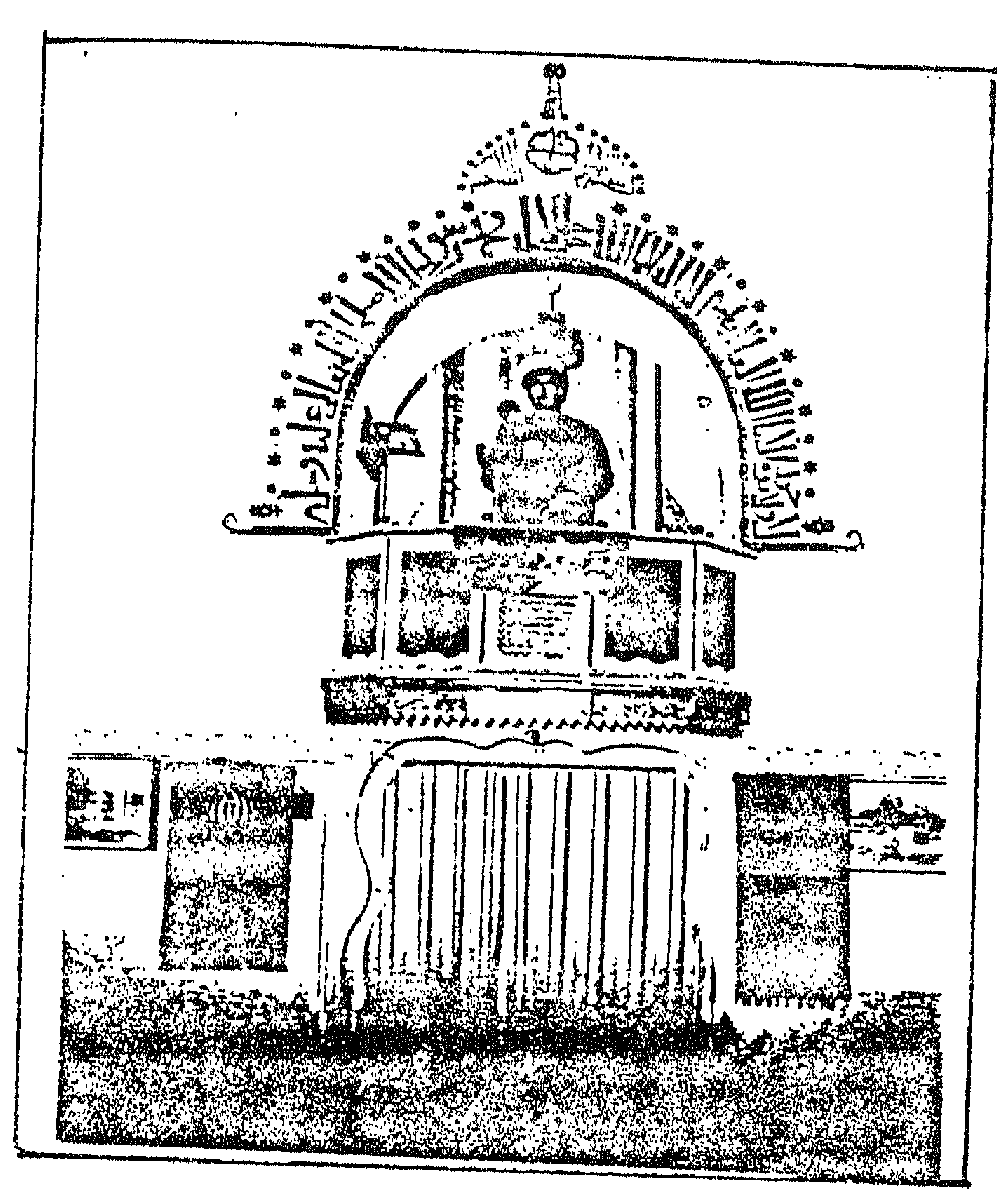
" وقبل ذلك فى ٣ نوفمبر ١٩٤٣م قامت السلطات السوفيتية بطرد الكاراتشى من أوطانهم ، والبالغ عددهم ٧٠ر٠٠٠ شخص فى خلال ساعات قليلة ، وضم الإقليم الذى يسكنونه والذى يحمل اسمهم إلى جمهورية جورجيا " .

" وفى آخر ديسمبر ١٩٤٣م تم طرد جماعات " الكالمك " من أوطانهم ، ويبلغ عددهم ٢٣٠ر٠٠٠ شخص ، وهذا عدا ٢٠ر٠٠٠ شخص من هذه الجماعات كانوا فى الخطوط الأمامية فى جبهة القتال إلى جانب الروس فى الحرب العالمية الثانية . وقد حملوا فى عربات الأبقار إلى محطة سكة حديد سالسك فى يوم واحد ، وقد أرسلوا إلى أقصى الجهات الشرقية والشمالية فى سيبيريا وأطلقت الأسماء الروسية على الأماكن التى كانت تقيم بها قبائل الكالمك " .

" وجاء بعد ذلك دور قبائل البلكار ، ففى ٢٥ فبراير الساعة التاسعة صباحا وصل بريا ومعاونوه فى عربة فاخرة ووجهوا الشتائم والإهانات القذرة إلى جماعات البلكار والكاباردين . وفى ٨ مارس طردت جماعات البلكار وعددها ٤٠ر٠٠٠ شخص فى عربات البضاعة فى قطار السكك الحديدية إلى قازاخستان ، وغير اسم الجمهورية من " كباردين - البلكار " إلى جمهورية "كاباردين " ، ثم أعيدت تسمية أجزائها لتحمل أسماء روسية .

وقد أدى هذا النفى الجماعى لشعوب القوقاز إلى سيبيريا إلى تقوية الصحوة الإسلامية بين تلك الشعوب على غير ما كان الروس يتوقعون ، ذلك أن " الأخيات الصوفية " (الطرق الصوفية) عبأت نشاطها بين أولئك المهاجرين فى منفاهم ، حيث غدت تلك الطرق الصوفية هى رمز البقاء للشعوب ، والدافع لإصرارهم على التحدى . وقامت تلك الطرق الصوفية بنشر الإسلام بين جيرانها من البلاد فى وسط آسيا ، كما انبثقت عن الطريقة القادرية بين أهالى القوقاز طريقة أطلق عليها الروس اسم " أخوية القلنسوات البيضاء " لأنهم كانوا يلبسون قبعات الفراء الأبيض عند الذكر . ومن ثم ظل أهالى القوقاز على تمسكهم بدينهم الإسلامى حتى اضطرت السلطات الروسية إلى إعادتهم إلى أوطانهم مرة أخرى ، وذلك سنة ١٣٧٧للهجرة/١٩٥٧م .

وكان السبب فى عودة شعوب القوقاز إلى بلادها هو ما تبين لمجلس السوفيت الأعلى من زيف الاتهام الذى وجهه ستالين



إمام وخطيب مسجد يدعو إلى الله فى أحد مساجد الشيشان

المصدر: جوهر داوديف ، صعوبة الطريق إلى الحرية

إلى شعوب القوقاز ورميهم بتهمة التعاون مع جماعات النازى الألمان أثناء هجوم ألمانيا على روسيا فى الحرب العالمية الثانية وقد وجدت شعوب القوقاز بلادها مخربة ومساجدها مهدمة ، ومن ثم أقبل أهالى القوقاز مرة أخرى فى جد ونشاط لدفع صحوتهم الإسلامية خطوات واسعة إلى الأمام ، كما إزداد إقبالهم على الطرق الصوفية التى صار أتباعها يكونون نصف سكان القوقاز تقريبا .

واستطاعت الصحوة الإسلامية فى بلاد القوقاز أن تحافظ ، بفضل اتساع نشاط الطرق الصوفية على حيويتها وسلامة أتباعها . ذلك أن الفترة التى تلت الحرب العالمية الثانية شهدت سياسة روسيا البلشفية التى تقوم على أساس نشر الإيدولوجية الإلحادية ، وتعميق الثقافة الشيوعية وتحطيم نظام الأسرة القوى المتماسك لدى المسلمين ، وذلك فضلا عن منع الدراسة الدينية واللغة العربية منعا باتا ، وقرر الروس أيضا منع الكتابة بالحرف العربى ، وتحويله إلى الخط اللاتينى أولا ، ثم بعد ذلك إلى الحرف الروسى ولكن الشعور القومى عند أهالى القوقاز صار مرتبطا بالشعور الدينى الإسلامى ، وأتاح لإولئك الأهالى متابعة الصمود والتحدى للحكم الروسى الشيوعى حتى الوقت الحاضر .

المرحلة الرابعة للصحوة الإسلامية فى بلاد القوقاز ، وهى المرحلة المعاصرة التى يتولى قيادتها اليوم شعب الشيشان فى بسالة عالية ونضال رائع . وبدأت هذه المرحلة فى أعقاب تفكك

الاتحاد السوفيتى (١٩٩١م) ، حيث أصبحت جمهورياته الاتحادية مستقلة ، ويربطها إطار للتعاون السياسى والاقتصادى والعسكرى يسمى " الكومنولث " . ولم يوافق شعب القوقاز على أن يظل على تبعيته لروسيا الاتحادية التى نهضت بعد انهيار الاتحاد السوفيتى بأعباء السيطرة على الجماعات الإسلامية القائمة فى بلادها ، ومنهم أهالى بلاد القوقاز . واتخذت السياسة الروسية الحالية نهجا قوامه بناء وحدة اقتصادية وعسكرية للجمهوريات السوفيتية السابقة تحت قيادة موسكو ، أملا فى أن تتمكن روسيا من العودة إلى مركز القيادة العالمية ، وهو أمر يؤكد أن النبض الإمبراطورى والشيوعى مازال يدق فى روسيا اليوم بقوة ، وهى تواجه الصحوة الإسلامية بصفة خاصة عند الشيشان .

وكشف تقرير روسى عن الأسباب الحقيقية لغزو الشيشان قائلا : " إن الشيشان تعتبر البوابة الرئيسية للقوقاز ، ومن الناحية الاقتصادية والاستراتيجية فهى مهمة للغاية باعتبارها خط القتال بين الجمهوريات السوفيتية ، كما أنها ملتقى لأنابيت البترول والغاز الطبيعى ، كما أن كثيرا من الجمهوريات القوقازية سارعت بالدفاع عن الشيشان مما دفع روسيا للخوف من تأثير هذا الاستقلال على بقية الجمهوريات القوقازية ... وفضلا عن ذلك فإن الروس المقيمين فى جمهورية الشيشان يربطون قلقهم تجاه مصيرهم فى الشيشان المستقلة بآفاق الإسلام والصحوة الإسلامية . وعبر عن ذلك تصريح

"جيورجى كالكين " رئيس قسم جروزنى لقوزاق منطقة تيرك بقوله : " إن جميع الروس أو جميعهم تقريبا سوف ينسحبون من بلاد الشيشان إذا انفصلت الدولة الشيشانية لتتحول إلى دولة إسلامية مستقلة خارج روسيا وذلك فضلا عن تلاحم الشعوب الإسلامية فى القوقاز حول حكومة الشيشان .

ووجد شعب القوقاز فى صحوته المعاصرة قيادة عاصرت الأحداث الدامية التى سبق لشعب القوقاز أن تعرض لها على يد السلطات الروسية .وهو شخصية الزعيم "جوهر داوديبف " (جوهر بن داود) ، إذ ولد عام ١٩٤٤م وهو العام الذى تلاه صدور أوامر ستالين بطرد شعب الشيشان بأجمعه رجالا ونساءً وأطفالاً إلى كازخستان ، رغبة منه فى استئصال أوتاد هذا الشعب القوقازى العريق ، وذلك تحت ستار الادعاء الكاذب بمساعدة الشيشان لقوات النازى الألمانية فى هجومها على روسيا . وأمضى " داوديبف " ثلاثة عشر عاما مع أسرته فى المنفى شاهد فيها الويلات المدلهمة التى نزلت بمواطنيه ، وما تعرضوا له من آلام جسام . ثم عاد " داوديبف " إلى وطنه شيشان عام ١٩٥٧م حين تقرر عودة شعب الشيشان وغيره من الشعوب الإسلامية التى سبق أن نفاها ستالين من أوطانها .

وعاش " داوديبف " فى وطنه بالشيشان فى تلك المرحلة المصيرية التى كانت تجتازها روسيا الاتحادية عقب انهيار الاتحاد السوفيتى ووقف عن كثب على تطور الأحداث حيث التحق بالقوات العسكرية السوفيتية وتدرج فى مناصبها ،

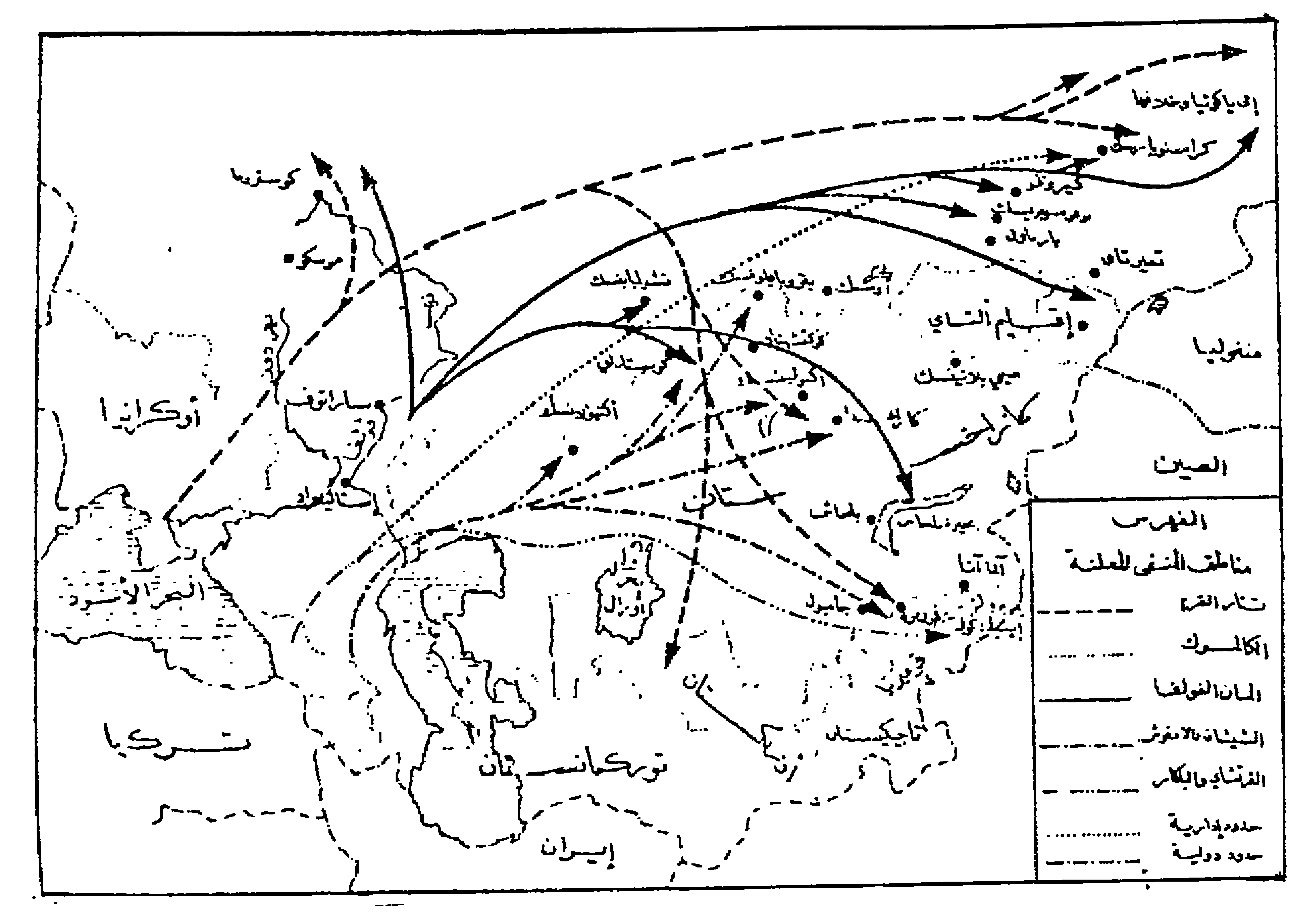
وصار خبيرا بسياسة روسيا الاتحادية وأهدافها تجاه المسلمين في بلادها .واشتهر "داودييف " بين مواطنيه بتحمسه للإسلام ، وانتهاجه في تصوفه للطريقة النقشبندية التي سبق أن تخرج منها قادة القوقاز في صحوتهم الإسلامية ومناضلة الاستعمار الروسي ، وذلك فضلا عن اعتناقه المذهب الشافعي ، وهي مظاهر تؤكد حبه للاعتدال والابتعاد عن العنف ، والميل المخلص إلى دعم الصحوة الإسلامية في الشيشان .

وسار " داوديف " على نهج أسلافه من قادة القوقاز في العمل على وحدة شعوب القوقاز من داغستان والشيشان والأنجوش وأوستينيا والكباردين والبلكار ، وجمع كلمة المسلمين للسير قدما بصحوتهم الإسلامية إلى ما يكفل لهم العزة والكرامة . وكان مواطنوه من الشيشان والأنجوش قد أعلنوا عقب مؤتمرهم القومي الشعبي الأول الذي انعقد سنة ١٩٩٠م استقلال جمهورية الشيشان ، وإعلان السيادة على الأرض الشيشانية لليشانيين ، وكان " داوديف " قد استقال من عمله بالقوات المسلحة الروسية ، وشارك بهمة ونشاط في أعمال المؤتمر الشعبي الثاني للشيشان الذي انعقد في شهر يوليو سنة ١٩٩١م ، حيث تولى رئاسة لجنة المؤتمر الشعبي للشيشان . وتم في هذا المؤتمر النص على التوصية الخاصة بالاستقلال التام لجمهورية الشيشان وسيادتها على أراضيها .

وجرت بعد ذلك انتخابات لرئاسة الشيشان في ١٩٩١/١٠/٢٩م فاز فيها " داوديف " بمنصب رئيس الجمهورية

الشيشانية ، ثم قيامه بأداء قسم اليمين القانونية أمام البرلمان ، وإعلان استقلال جمهورية الشيشان وسيادتها على أراضيها ، مع العمل على دعم أركان الإسلام وذلك من أجل التغلب على آثار " الإلحاد السوفيتى " ، تحقيقا لتصحيح مسيرة الشعب الشيشانى معنويا وأخلاقيا . فقد صرح دادييف فى أكتوبر ١٩٩١م قائلا : " إننا نضطر لإيلاء الدين (الإسلامى) اهتماما خاصا ضمن بنياتنا الجديدة لأن الدين يمثل ذلك الأساس الذى تعرض للتفسيخ ، ولا يزال يتعرض للحصار كى لا يتمكن الناس من تحقيق الوحدة من خلال الدين ... إن أى قائد لا يؤدى اليمين على القرآن لا يحق له تولى المنصب ضمن بنياتنا الجديدة فى هذه المرحلة الراهنة " . واستهل " داوديف " أعماله بدعم أركان الصحوة الإسلامية فى بلاده ، حيث أمر بإعادة فتح المساجد التى سبق للشيوعيين إغلاقها ، وبلغ عدد تلك المساجد ١٥٥. مسجدا ، كما أصدر قرارا بأن تتبنى الدولة النشاط الإسلامى والدراسات الإسلامية ، ولذا تم فى جروزنى إنشاء معهد الدولة للدراسات الإسلامية ، مع تدعيم إقامة معهد الإمام الشافعى للدراسات الإسلامية ، وهو المعهد الذى استعان بالمعلمين المصريين .

وبدأت بذلك مرحلة الاصطدام بين الصحوة الإسلامية فى بلاد القوقاز وبين روسيا الاتحادية ، على نحو ما سبق للروس القيام به ضد قادة الإصلاح المسلمين فى بلاد القوقاز فلم يعترف الروس باستقلال الشيشان وبما تم فيها من انتخابات ، وقامت



خريطة عمليات التهجير (النفي)

السلطات الروسية بإعلان حالة الطوارىء فى ١٩٩١/١١/٨م وأنزلت ألفين من قوات أمن وزارة الداخلية فى أراضى الشيشان . غير أن الشيشانيين استطاعوا أسر أولئك الجنود الروس ، وتم ترحيلهم إلى موسكو دون أن يلحق بهم أى أذى ، جريا على النهج الإسلامى الذى يأمر بحسن معاملة الأسرى .

وأخذت الصحوة الإسلامية فى بلاد الشيشان تواجه حملات من العدوان السافر عليها من جانب قوات روسيا الاتحادية وفى يوم ١٩٩٤/١٢/١١م بدأت العمليات العسكرية الروسية ضد جروزنى ، عاصمة الشيشان ، تساندها الضربات الجوية المتتالية ، ثم أخذت القوات الروسية تدخل الشيشان عن طريق ثلاثة محاور ، مستهدفة وأد النشاط العسكرى بها مرة واحدة ، غير أن المقاومة الشرسة والبطولية التى يبديها المجاهدون الشيشان اليوم ، تعيد إلى الأذهان حركات التحرر التى شهدتها بلاد القوقاز على امتداد مائتى عام ضد الطغيان الروسى بشقيه القيصرى والشيوعى ، وأن أبطال القوقاز من الشيشانيين مازالوا قادرين على حمل راية الجهاد التى رفعها الأجداد والآباء خالفا عن سالف ، ومواصلة الصحوة الإسلامية فى ظل شعارات الإسلام الخالدة " الله أكبر " و " القسم على المصحف " ، و " النصر أو الشهادة " ، مؤمنين بنصر الله .

وتجلت أهمية هذا الدور المعاصر الذى يقوم به الإسلام فى صحوة شعوب القوقاز فى التقارير الروسية التى تم اعدادها لمتابعة حركة الجهاد القوقازى ضد الغزو الروسى لبلاد

الشيشان . فقد جاء فى تقرير روسى بعنوان : " الموضوع الشيشانى ، نتائج محددة واحتمالات مفتوحة " ما يلى :

" إن حرب جروزنى أو الحرب الروسية الشيشانية ينقضى - أيا كان شكل الانتصار الروسى - إلى خسارة روسيا ، فقد جرت العادة الآن أن تحسب التكلفة العسكرية للعملية العسكرية والتى يقدرها البرلمان بمائة مليار روبل - أما عن التكلفة السياسية فأمر آخر . فإذا كان هدف الحرب هو إخضاع الشيشان والقوقاز فسوف تخضعهم الدبابات ، ولكن إذا كان هدف الحرب ليس الاخضاع ولكن دمج القوقاز اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وحضاريا فى الأمة الروسية الضخمة ، بحيث تصبح الشعوب الجبلية خلية حية من خلايا الأمة ، فإن الحرب قد باعدت روسيا عن ذلك الهدف تماما ، لأنها ستقضى ليس للذوبان القوقازى القومى ، ولكن على العكس للالتفاف القومى حول الذات فى مواجهة روسيا ، خاصة وأن القوقاز لم ينصهر أبدا فى القومية الروسية . لقد خصصت روسيا من قبل (فى القرن الثامن عشر الميلادى) ربع دخلها القومى الذى أنفقته على نصف مليون جندى روسى لقمع اتفاقية الشيخ منصور الشيشانى ما بين ١٧٨٥و١٧٩١ ، ثم ليتصدى الشيخ شامل زعيم حركة المقاومة الشعبية حتى ألقت القبض عليه فى ١٨٥٩ ...... إن الاضطهاد القومى والدينى والاقتصادى دفع القوقاز بعيدا عن الاندماج والانصهار إلى التفاف حول الذات . وإذا كان الشيشانيون مازالوا يذكرون بعد مرور نصف قرن

صور ترحيلهم بالقسر فإن ذكرى الحرب العالمية ستظل عالقة بضمائرهم لعقود قادمة ليترسخ عداؤهم التقليدى والتاريخى للروس " .

وأشارت دراسة روسية أخرى إلى أهمية دور الإسلام فى الصحوة المعاصرة لأهالى القوقاز ، وارتباطها بما سبقتها من حركات التحرر القوقازية فى العصر الحديث . وجاءت تلك الدراسة فى " مجلة فوستوك " الصادرة عن معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية فى جمهورية الشيشان ، حيث قالت : " يمكن النظر إلى أحداث خريف ١٩٩١م فى جمهورية الشيشان أنغوشيا ، والتى أطلق عليها اسم "الثورة الشيشانية" على اعتبار أنها أحد أسطع الأمثلة على " تسييس " الدين الإسلامى فى الاتحاد السوفيتى السابق . لقد شاركت هناك جماعات ذات توجه إسلامى ، مشاركة نشطة فى إسقاط النظام الشيوعى فى جروزنى .

" وقد كانت تلك الجماعات تربط ربطا مكشوفا ما بين الصراع من أجل إسقاط السلطة الشيوعية المحلية ، وتحقيق الاستقلال الكامل لبلاد الشيشان من جهة ، وبين جهاد الشيشان وغيرهم من شعوب القوقاز ضد روسيا ، ذلك الجهاد الذى استمر منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادى وحتى سبعينات القرن التاسع عشر .

" لقد تسلح القوميون المتشددون بزعامة الشيخ منصور أول الزعماء الدينيين الشيشان الذى بدأ حركته فى المنطقة فى

أواخر ثمانيات القرن الثامن عشر فى سبيل تدعيم الشريعة الإسلامية تحقيقا لتلاحم الشعوب فى داغستان فى وجه التوسع الروسى فى القوقاز . وكان : حزب الطريق الإسلامى " يتمتع بنفوذ كبير ضمن اللجنة التنفيذية للمؤتمر القومى العام للشعب الشيشانى ، وهو الهيئة التنظيمية الرئيسية للحركة القومية الشيشانية الراهنة . وكان الحزب المذكور يرى فى الاستقلال السياسى لبلاد الشيشان ، بمعنى انفصالها عن روسيا شرطا مسبقا لابد منه لانتقال جمهورية الشيشان تدريجيا إلى " اسس الإسلام " . " وتم تكليف زعيم حزب الطريق الإسلامى " بيسان عنتا ميروف " بتشكيل ما يسمى الحرس الوطنى للمؤتمر القومى العام للشعب الشيشانى ، وقد شكل أعضاء الحزب نواة للحراس الذين عاهدوا بالجهاد . وقد وصل عددهم فى سبتمبر سنة ١٩٩١م إلى سبعة آلاف فرد " .

وقد قدمت الطريقة القادرية وشيخها كونتا حاجى ، وهم أقوى الفرق الصوفية وأكثرها نفوذا ، لهذه الحركة الجهادية دعما حازما ، كما انضم إليها العديد من مشايخ القبائل الشيشانية ذات النفوذ ، وقام هؤلاء الصوفية بإكساب الصبغة الإسلامية المتميزة للاجتماعات الحاشدة التى شهدت هتافات " الله أكبر " وذكروا الله ذكرا جهرا على نص الطريقة القادرية .

وفى خريف ١٩٩١م عقب إعلان استقلال الشيشان عن روسيا حدثت وقائع متعددة تدل على أن الحديث يدور عن ولادة دولة إسلامية بالذات ، ويمكننا الاستشهاد بالكلمات الموالية

للاعلام ، التى كان يطلقها السياسيون الجدد فى السلطة ، وعلى رأسهم الجنرال المتقاعد " جوهر داوديف " ... الذى دعا - بين ما دعا إليه .... التحرر المشترك من الكفر ... وفى تلك الأيام عاهد عشرات من آلاف الشبان المجتمعة فى جروزنى بالجهاد ضد التطاولات الروسية ضد استقلال الشيشان ، التى تقوم به الامبراطورية الروسية الجديدة . حينذاك أعلن ممثلوا الأوساط الواسعة للرأى العام فى الجمهوريات الإسلامية لشمال القوقاز تضامنهم مع جمهورية الشاشان ، كما أعلنت كونفدرالية الشعوب الجبلية فى القوقاز دعمها الكامل للشيشان ...

وقد أظهرت القوى التقليدية (فى الشيشان) دعما لداوديف دون قيد أو شرط ، وجرت مظاهرة لأنصار الرئيس حاول المشاركون فيها صراحة إكساب زعيم الجمهورية صورة قائد دينى ، وكان من بين شعارات المتظاهرين ، الشعارات التاليه : " نحن بجانبك يا ذئب الإسلام : ، و " معنا الله وداوديف " و " الله معك يا إمام الشيشان " .

وقرر مؤتمر الحركات الاجتماعية والسياسية والدينية الموحدة ، الذى عقد فى جروزنى فى يوليو ١٩٩٢م تشكيل هيئات لسلطة الدولة فى الجمهورية طبقا للتقاليد التاريخية للشعب الشيشانى القائمة على مبادىء الإسلام والشريعة الإسلامية وأولويات القيم الإنسانية العامة ... وأخيرا أدخل البرلمان فى مايو ١٩٩٣م تعديلا على الدستور يعلن الإسلام دينا للدولة ... " ويعتبر الإسلام فى الشيشان فى الوقت الحاضر "

- على نحو ما قررته الدراسات السوفيتية نفسها - " دينا للدولة فى واقع الأمر " .

ومازالت الدراسات المعاصرة تواصل تحليلها للمقاومة الشيشانية لروسيا ، جاهدة على أن تلقى الضوء على حقيقة الأوضاع الجارية فى هذا الجزء من دار الإسلام ، ومن ذلك الدراسة التى قدمتها صحيفة الأهرام بتاريخ ١٩٩٥/٦/٧م تحت عنوان : " الشيشان ... ميدان لاستعراض العضلات الروسية " وجاء فيه : " وعلى نطاق المعارك أصبح واضحا أن القوات الروسية قد حولت الشيشان إلى ميدان لتجارب أسلحتها الجديدة ، ويعلق العسكريون المطلعون على أن محاصرة القوات الشيشانية لا تحتاج إلى أحدث طائرات الهليكوبتر التى تطلق صواريخها من عدة جهات ويعرضها التلفزيون الروسى باستمرار ، وكذلك الطائرات المقاتلة وحتى الثقيلة منها بالاضافة إلى الدبابات والمدرعات الحديثة .

ويتردد بأن روسيا تريد فى الشيشان إظهار عضلاتها لتركيا القريبة من منطقة القوقاز والمتعاطفة سرا وعلنا مع المقاومة الشيشانية ... كما يقصد الروس من إظهار عضلاتهم الحربية إيهام إيران الإسلامية بأن روسيا ستبقى سيدة الموقف فى شمال القوقاز وإلى الأبد أرض روسية ... ويقول مصدر روسى بأن لدى روسيا قرائن وأدلة على دعم تركيا ، دولة وحكومة وشعبا للمقاومين الشيشانيين ...

وعلى خلفية ذلك أعلن المفتى عين الدينوف ، مفتى الإدارة الروحية لمسلمى المنطقة الأوربية من روسيا الاتحادية بأنه إذا لم يوقف الروس سفك الدماء فى شيشينيا فى أقرب وقت فإن شرور هذه الحرب ستؤثر حتما على أطفال روسيا ، وأضاف المفتى عين الدينوف قائلا : يهدد النزاع الشيشانى بتقويض ركائز دولتنا (الروسية) ، ورغم جهود ممثلى الأديان المختلفة ومبادرة الحكومة لم يتسن بعد إرجاع أوضاع هذه المنطقة إلى الحياة السلمية ، ونرى الخروج من الأزمة فقط عن طريق رص وتراص المجتمع بأسره ، بغض النظر عن الفوارق العرقية والدينية وغيرها .

والملاحظ أن يستهل الشيخ عين الدانوف ، مفتى الإدارة الدينية لمسلمى المنطقة الأوربية من الاتحاد الروسى المأساة الشيشانية فى خطابه الافتتاحى لمؤتمر الإسلام والتفاهم الاثنى الدينى فى العالم المتغير المعاصر ، الذى انعقد فى موسكو (يونيو ١٩٥٥م) تحت رعاية هيئة اليونسكو بمناسبة الذكرى التسعين لتأسيس جامع موسكو .

وشارك فى أعمال هذا المؤتمر نائب رئيس مجلس الفدرالية البرلمانى الروسى الدكتور رمضان عبد اللطينوف وممثلو ديوان رئيس الاتحاد الروسى وأعضاء الحكومة والبرلمان ورئيس مجلس وزراء حكومة منطقة ومدينة موسكو .

وفى خشوع أحنى يورى لوجكوف ، عمدة موسكو ، رأسه وخلع حذاءه وهو يستهل دخوله إلى جامع موسكو ، حيث كان

فى استقباله مفتى مسلمى روسيا وكبار العلماء والمشايخ ، ويعتبر لوجكوف الشخصية الرابعة فى النظام الروسى ، وقد ظهر داخل جامع موسكو وهو يضع على رأسه طاقية مثل بقية المسلمين الروس .

وظل لوجكوف يحنى رأسه توقيرا ، ويربو عدد المسلمين بموسكو على ٨٠٠ ألف ، بينما يحضر لجامع موسكو فى الاحتفالات والأعياد ما يقرب من ٣٥ ألف مسلم روسى وأجنبى، ويشتهر جامع موسكو بأنه دار العبادة التى لم تغلق أبوابها قط حتى فى سنوات التزمت والقمع والتضييق فى العهد السوفيتى السابق .

كذلك شارك فى أعمال المؤتمر (المنعقد فى موسكو) علماء ووزراء وسفراء وزعماء من أكثر من ٣٠ دولة فى العالم (من بينهم مصر) ... وقد اجتمع عدد من مشاهير الضيوف المسلمين مع إيفربكين رئيس مجلس النواب الروسى حيث جرت مناقشة التعاون بين الطوائف وتعزيز السلام المدنى ومشاركة الهيئات والشخصيات الإسلامية فى اصلاح المجتمعات ، وأعرب المشاركون فى المحادثة عن رغبتهم فى أن يجد مجلس دوما النواب الروسى السبيل لحل الأزمة الشيشانية سلميا " .

وتتابعت الدراسات عن الشيشان ، ومنها ما جاء فى صحيفة الأهرام يوم الجمعة ٧ يوليو ١٩٩٥م تحت عنوان " الشيشان وتوابع زلزال موسكو السياسى " فأوضحت الدراسة أن " تداعيات حرب الشيشان تزلزل الكرملين ،

وتصيب الحياة السياسية فى روسيا بالأزمة تلو الأخرى . فقد اضطر الرئيس يلتسن إلى عزل ثلاثة من كبار " مهندسى " العملية العسكرية الروسية فى الشيشان بهدف إنقاذ حكومة رئيس الوزراء فيكتور تشيرنو ميردين من الانهيار ، ولتخليص البلاد من أسوأ أزمة سياسية تتعرض لها .

وكان الأسلوب الذى انتهجه الكرملين فى معالجة هذه الأزمة يستهدف أساسا طرح سياسة جديدة فى التعامل مع أزمة الشيشان إيذانا لانتهاء الحرب التى دخلت شهرها الثامن وبدأت تأخذ أبعادا جديدة تماما .

كما حقق أكثر من طرف الاستفادة من الأزمة السياسية الأخيرة فى موسكو وطريقة معالجتها . وكان على رأس المستفيدين من جراء ذلك رئيس الوزراء فيكتور تشيرنو ميدرين الذى نجح فى تقوية موقفه السياسى ودعم الجهود التى تجريها حكومته مع الشيشان .

ورغم محاولة عثمان إيماييف رئيس الوفد الشيشانى فى مفاوضات السلام التى تجرى فى جروزنى إظهار أن الجانب الشيشانى لا يبالى بأزمة موسكو السياسية وأنه ينظر إليها باعتبارها مسألة داخلية إلا ان هذا لا يمنع القول بأن الشيشان من بين المستفيدين من الأزمة حيث أدت إلى تقوية موقف المفاوضين الشيشان وتيسير مهمتهم فى وقت يظهر فيه الجانب الروسى وكأنه الأكثر حرصا على وقف القتال فى الشيشان مهما كانت التنازلات ، ولا ينكر أحد أن هذا التغيير

المفاجىء فى موقف الجانبين لم يكن ليحدث لو لم يقم شامل باساييف ومجموعته الانتحارية باحتجاز رهائن فى مستشفى بودينوفسك فى (يونيو - ١٩٩٥م) .

هذا وفى الوقت الذى يحاول فيه تشيرنو ميردين إظهار أن الأزمة انتهت وانه قد آن الأوان للالتفات إلى سياسة الاصلاح الاقتصادى التى أضرت بها حرب الشيشان وأسفرت عن فقدان روسيا ربع قدرتها الاقتصادية وثلث قدرتها الصناعية خلال عامين ، وعلى صعيد المفاوضات الروسية الشيشانية فإن الجهود التى يقوم بها تشيرنو ميردين ترمى إلى تحقيق هدف واحد هو الوصول إلى ما يسمى بالخيار رقم صفر ، ويعنى العودة إلى وضع ما قبل بدء الحرب . وهذا الخيار طرحه الوفد الروسى خلال مفاوضات جروزنى ولم يوافق عليه الجانب الشيشانى حتى الآن ، وإن كان يحمل تنازلات ليست هينة من قبل موسكو ... غير أن النقط الخلافية بين الطرفين قد تهدد بإعادة الوضع إلى ما كان عليه قبل عملية بودينوفسك ، وأن الأمر يحتاج إلى إيجاد حل وسط يضمن عدم استئناف القتال بين الجانبين .

ووصف شاهد عيان ، وهو السيد / فهمى هويدى آثار الهجوم الروسى على جروزنى عاصمة الشيشان ، وذلك فى مقال نشره بجريدة الأهرام يوم الثلاثاء ١٨ يولية ١٩٩٠م تحت عنوان " مشاهد القيامة فى جروزنى ، فقال ما نصه :

يذهل المرء للصورة التى يراها فى قلب المدينة (جروزنى ،

العاصمة الشيشانية) ، حتى لا يكاد يصدق أن ما يشهده هو آثار معركة عادية ، فثمة أحياء تحولت إلى قطعة من الجبن السويسرى التى يفصل فيها الثقب عن الآخر ثقب ثالث ، وثمة شوارع ليس فيها جدار قائم بطوله ، وثمة مربعات سكنية مسحت البنايات فيها مسحا ، بحيث لم تبق فيها طوبة فوق طوبة ، ولم يعد يسكنها سوى الكلاب الضالة والفئران .

بعد أن تستوعب الموقف وتتأكد من أن ما تراه حقيقة وليس حلما أو كآبة تدرك أن ما جرى كان انتقاما وليس حربا ، وقصما للظهر وليس كسرا للشوكة ، بل استئصال لوجود وليس مجرد إطفاء لحريق ، الأمر الذى لا يدع مجالا للشك فى أن الحملة العسكرية الروسية ، إذا كانت قد نجحت فى احتلال جروزنى فإنها نسفت بين ما نسفت كل أمل فى التعايش بين الروس والشيشان .

فهمت حين رأيت ما رأيت لماذا استنكر بشدة جارى على الطائرة فكرة التعايش هناك ، وقال إنه منذ ثلاثة قرون والشيشان فى حرب ضد الهيمنة الروسية التى رفضوها فى الماضى ومازالوا يرفضونها حتى الآن ، حتى إنهم ظلوا ينتفضون ضد تلك الهيمنة بانتظام كل خمسين عاما ، وما يتصوره الناس سكوتا أو تعايشا بين الطرفين لا يراه الشيشان سوى هدنة بين حربين .

أضاف جارى الذى علمت أنه أستاذ فى التاريخ ، مختص بشعوب شمال القوقاز أن النخبة الروسية تعلم جيدا أن

الشيشان يرفضون الخضوع لأى أجنبى ، ومن ثم فإن القبول بالتعايش القائم على القهر والغلبة يعد عارا يطعن الكبرياء الشيشانية فى الصميم .

قال : إن يلتسين حين حاول بالحملة العسكرية أن يصفى حسابا مع الشيشان فإنه كان يكمل مهمة بدأها ستالين عام ١٩٤٤م حين أمر بتهجير الشعب الشيشانى كله إلى سيبيريا لشكه فى ولائهم له وهو احتمال تعاونهم مع الألمان ضده ، وهى الجريمة التى أسفرت عن إبادة نصف الشيشان فى الطريق وفى المنفى . وقد قدر للنصف الباقى أن يعودوا إلى بلادهم حين تقرر رد اعتبار الشيشان بعد حوالى عشرين عاما ، انتقلوا منذ ذلك الحين من حال النفى إلى حال الأسر . إذ هم فى ظل الهيمنة الروسية لا يعتبرون أنفسهم مواطنين فى دولة لهم ، قناعتهم الحقيقية هى أنهم أسرى لدى دولة أخرى طامعة فيهم .

حتى هذه القناعة تغيرت بعد الحملة العسكرية الروسية ، هكذا قال جارى ، ثم أضاف أن القيادة الروسية حين فعلت بالشعب الشيشانى ما فعلته هذه المرة لم تحاول إيهامنا بأنها تتعامل مع مواطنين فى الاتحاد الروسى ، وإنما تصرفت مع شعبنا بمنطق الدولة المعادية والقاهرة التى تريد أن تسحق الجميع وتخضعهم بقوة السلاح .

حين عرف الرجل أننى صحفى عربى قال : لن أحكى لك شيئا مما جرى لأنك لن تصدق ، لكنك إذا وصلت إلى جروزنى واستمعت لمن تبقى من الناس فى المدينة أو فى مراكز التجمع

التى لاذوا بها ، حينذاك ستدرك أن الحقيقة أغرب بكثير من أى خيال .

وتناولت دراسة عربية نشرها " عبد الملك خليل " بجريدة الأهرام يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٩٥م تحت عنوان " الشيشان .. اللاحرب واللااستقرار " ارتفاع الروح الإسلامية التى صاحبت اشتداد المقاومة الشيشانية للروس بالرغم من احتلالهم للعاصمة الشيشانية جروزنى ، وما صاحب ذلك من قيام مفاوضات بين الروس والشيشانيين جاء فيها : " ومع ذلك فلا تزال المقاومة الشيشانية تواصل فتح نيرانها على القوات الروسية فى مختلف المناطق الشيشانية ... وفى تطور آخر كشف أركادى فوليسكى نائب رئيس وفد المفاوضات الروسية فى الشيشان عن أن دوداييف صرح له بأنه يمتلك إحدى عشرة مجموعة انتحارية تخريبية مبثوثة فى مختلف مناطق روسيا وأنها على أهبة الاستعداد للقيام بأعمالها عند تلقيها أوامر دوداييف " .

ومع ملاحظات فوليسكى فإن المشهد الحالى وما يتبعه من تداعيات سيثير خواطر الروس ، لأنهم أصبحوا يشاهدون شيشانيين على استعداد لتقبل الموت ببساطة دون أن يتراجعوا عما انتووه ، خاصة أنهم قد عصبوا رؤوسهم بعصبات خضراء اللون كتب عليها باللغة العربية : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . وفى جروزنى التى أصبحت مكانا للتشاور .. ترى شعارات معلقة فى الشارع الرئيسى منها شعار بخطوط بارزة

تقول : أيها الجنرال دوداييف ، أنت معنا ، والله العلى فوقنا ، وروسيا تحتنا والنصر وراءنا ، والله أكبر . وتحت هذا الشعار تسير طوابير النساء اللائى يرددن الاستقلال التام أو الموت . وتضم هذه المظاهرات والتجمعات الشيوخ والنساء والأطفال ، ومن الطبيعى أن تخلو من الرجال الذين لا يزالون يحملون السلاح فى أماكن أخرى . وعندما كانت سيارة المفاوضين أو الخبراء الشيشان تقترب من مقر منظمة الأمن والتعاون الأوربى حيث تجرى الاتصالات بين الروس والشيشان كانت تسمع زغاريد النساء ويرفع الشيوخ العصى وأحيانا السيوف ويرقصون رقصة الموت أو الاستقلال " .

ومن ثم يفترض بأنه إذا عاد دودايف لجروزنى فإنه بالقطع سيستقبل فى أى وقت استقبال الفاتحين ، كما يقول أنصاره ومؤيدوه . وبسؤال مراسل من صحيفة كمسمو ليسكايا برافدا لامرأة من جروزنى حول احتمال عودة دودايف ، بادرت المراسل قائلة : سؤالك ساذج إلى أقصى حد ، دودايف هو زعيمنا الأوحد ، زعيم الشيشان كله ، قبل قدومه سيهرب كل عملاء موسكو على الفور ، هذا إذا استطاعوا أن يفروا من عدم غفران شعبنا لهم " .

لقد جرت وتجرى المفاوضات بين الطرفين الروسى والشيشانى ، غير أنها مفاوضات لم تسفر عن سلم مستقر ، كما أنها للواقع وإحقاقا للحق لم تكن فاشلة تماما ، إنها فى بساطة وفى تلخيص مخل قد خلقت وضعا يسوده الحذر

والترقب ومحاولة كل جانب من الجانبين انتهاز الفرصة لتعزيز مواقعه السياسية والعسكرية ، ولهذا فإذا كانت الحرب الشاملة الواسعة قد توقفت فعلا فإن التوتر لا يزال سائدا .

وإذا عدنا إلى الماضى القريب لوجدنا أن المقاتل شامل باساييف المتمرد الشيشانى هو الذى خلق هذه المرحلة الجديدة من الصراع بين الجانبين . فبعد أن رفضت روسيا فى السابق التفاوض مع من كانت تسميهم الانفصاليين والمجرمين التشكيلات المسلحة غير الشرعية رضخ تشيرنو ميردين ، رئيس الحكومة الروسية إلى المفاوضات ، ليس مع دودايف زعيم الشيشان ، بل مع باسايف أحد أعوانه وقادة الفدائيين .. لقد كشفت الوقائع أن عملية احتجاز باسايف لأكثر من ألف رهينة روسية فى مستشفى بوديونوفسك فى يونيو الماضى (١٩٩٥م) .. قد حققت للشيشانيين من الناحية المعنوية عدة أهداف منها :

١ - الاحتفاظ بالمقاتلين وأسلحتهم الأساسية .
٢ - نيل عطف الرأى العام داخل روسيا ، وفى العالم خاصة وأن عددا من المتضررين والمتضررات فى الشيشان كانوا من الروس .
٣ - الصمود فى وجه جيوش دولة مازالت تعتبر نفسها دولة كبرى .
٤ - رعب الروس من مخاوف تجديد قادة الشيشان تنفيذ تهديداتهم داخل روسيا .

٥ - فرض وساطة الأمن والتعاون الأوربى والمجلس الأوربى على روسيا .

٦ - زيادة حيرة الحكام إزاء التزامهم ماديا ومعنويا بتعمير ما دمروه فى ٢٩ منطقة بالشيشان ، فى نفس الوقت الذى تئن فيه الميزانية الروسية من ضربات العجز المالى المريع .

ومن المرجح ألا يقبل الشيشانيون الحاكمون والمفاوضون بأقل من حقوق متميزة نوعا ما فى روسيا ، مثلهم مثل الجمهوريات الأخرى الإسلامية ، مثل تترستان وباشكيريا ، بل قد يطمحون فيما هو أكثر ، ويتمثل فى طرح نوع من الكونفدرالية على الروس تقربهم من وضع الانفصال ، وربما يكون ذلك لمدة محددة ، وبشروط منها إجراء انتخابات حرة دولية سيفوز بها دودايف وأنصاره ، أو دعاة نظام شيشانى يجمع بين حقوق السيادة والاستقلال والحق الطبيعى فى تقرير المصير القومى . وفى حالة رفض روسيا فإنها قد تضطر للاستمرار فى مستنقع الحرب الاستنزافية المهلكة .

ومازال موقف الشيشانيون من روسيا يقوم على أساس المعارضة التامة لاحتلال روسيا لبلادهم ، وذلك بالرغم من أن زعيم الشيشان ، وهو " دوداييف " قد لقى بدوره مصرعه فى الهجوم الذى شنه الروس على مقر قيادته قرب قرية جيخى ، على بعد ثلاثين كيلو مترا من العاصمة الشيشانية جروزنى ، وذلك فى شهر إبريل سنة ١٩٩٦م وهو الأمر الذى يؤكد عمق

واستمرار وأصالة الصحوة الشيشانية المعاصرة ، وذلك على نحو ما تناولته الدراسات عن موقف الشيشانيين من روسيا . ومن ذلك ما جاء فى دراسة بعنوان " أنشودة المذبحة " للسيد محمد عيسى الشرقاوى بصحيفة الأهرام يوم السبت ٤ مايو* ١٩٩٦م ، حيث أشار إلى بداية مقاومة أهل القوقاز للروس منذ صورها الكاتب والقصصى الروسى الشهير تولستوى ، الذى تطوع جنديا فى جيش القيصر الروسى نيقولا ، الذى كانت قواته تقاتل فى القوقاز أهل الجبل من مسلمى الشيشان .

وأوضحت تلك الدراسة عمق التأثير الذى تركه عشق الشيشان للحرية ، وأن نار هذا الحب لا تخبو أبدا ، فقال : " ولما وصل الشاب تولستوى إلى الجبهة عام ١٨٥١ راعه أن أفكاره قد تبدلت عن الأعداء ، فقد وقع فى هوى عشقهم للحرية ، وقال فى نشوة غامرة ، هذه البقعة البرية تجمع أغرب نقيضين : الحرب والحرية . ولعل هذه البقعة البرية برموزها الكونية النبيلة قد أججت خيال الجندى تولستوى ، فصار ألمع روائى أنجبته روسيا . فقد بهره أهل الشيشان وسحره جمال بلادهم ، وباحت له بالأسرار الحبلى بالوعد الإنسانى ، فألقى سيفه وشهر قلمه ، وتوضأ من ينبوع الحرية وكتب أجمل قصصه الأولى عن " القوزاق " ، بطلها تناصب أفكاره العداء للقيصر ولكن الإعجاب لأهل الجبل " .

أهل الجبل ، شاءت الأقدار أن يلتقى تولستوى ببطل من أبطالهم هو الحاج مراد ... الذى طارده الجنود الروس وحاصروه

واغتالوه . ولم تبرح أسطورة أهل الشيشان وجدان الروائى الروسى العظيم تولستوى ، ظلت تتوهج فى مخيلته حتى فاضت على الورق وضمتها روايته الحاج مراد ، وكان تولستوى عندما انتهى من حبكتها فى الرابعة والسبعين من عمره .

أهل الشيشان يرتلون صلاتهم اليومية منذ زمن تولستوى وحتى الآن فى محراب الحرية . كان قائدهم الأول جسورا اسمه منصور ، امتطى جواده وشهر سيفه ذات صباح من عام ١٧٨٥ ، وأشعل الثورة فى البلاد ، وألحق هزائم مريرة بقوات قيصرة روسيا كاترين الكبرى . عندما سقط الإمام منصور جريحا فى معركة ضارية عام ١٧٩١م ، وتمكن الروس من أسره لم تقاوم كاترين رغبتها الجامحة فى أن ترى المحارب الذى أقض مضجعها ، فساقوه مكبلا بالأصفاد إلى موسكو ، وقتلوه فى ٢١إبريل ١٧٩٤م ، بعد أن روت كاترين ظلما كراهيتها إلا قليل .. فسرعان ما انشقت جبال الشيشان عن بطل مغوار آخر هو الإمام شامل . جاء إلى الدنيا فى ليلة عاصفة بعد ثلاث سنوات من اغتيال الإمام منصور وتربى فى حضن الجبل ، ولقنه قومه أسطورة المقاتل . فلما شب عن الطوق امتشق سيفه وتصدى لجيوش القيصر وكبدهم خسائر فادحة . وقد صور تولستوى فى روايته الحاج مراد مشاهد من هذه الهزائم الروسية . ولم يستطع الروس فتح ثغرة ينفذون منها للنيل من الإمام شامل إلا بعد انتهاء حرب القرم عام ١٨٥٦ ، وحشدوا قواتهم فى القوقاز ، وتمكنوا من إيقاع شامل فى الأسر عام ١٨٥٩م .

وقضى سنوات كئيبة أسيرا ، فلما اعتلت صحته أطلقوا سراحه ، فرحل إلى مكة حيث مات عام ١٨٧١م وهو يبتهل إلى الله والحرية .

الحرية كانت آخر كلماته حملتها الريح القدسية إلى أرض الشيشان ، وتفجرت منها المقاومة للقهر السوفيتى إبان الحرب العالمية الثانية . لكن الطاغية ستالين كان فظا وغليظ القلب ، وقرر عام ١٩٤٤م الترحيل الجماعى لنحو مائتى ألف شخص من أهل الشيشان من ديارهم وحشرهم فى شاحنات نقل الماشية إلى كازاخستان ، كان بينهم طفل رضيع من سوء حظه أنه ولد فى ذلك العام الأسود . وقد مات والده وشقيقه الأكبر فى رحلة الضيم والقهر . وأمضى الطفل " جوهر دوداييف " فى المنفى الإجبارى ثلاثة عشر عاما ، قبل أن يعود إلى وطنه عام ١٩٥٧م . وقد صار جوهر ضابطا طيارا فى الجيش السوفيتى ، ثم غدا جنرالا . وعندما انفرط عقد الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩١م ، رفع جوهر علم بلاده الشيشان وأعلن الاستقلال . وقتها كان يلتسن قد استقر على عرش الكرملين ، وكان يردد أقوالا مأثورة العطشى للحرية ، وبدأ مسيرته الهوجاء صوب اقتصاد السوق . فلما تعثرت خطواته واضطربت خططه ، طاش صوابه ، وواتته فكرة جهنمية علها تنقذه من ورطة تدنى شعبيته وأفول نجمه . فقد حشد جيشه لغزو الشيشان ، وظن أنه فى خلال أيام سوف يحقق النصر المبين ويقضى على فتن اليسار واليمين ويعود ملء السمع والبصر فى عموم الديار

الروسية ، لكن تأكد له أنه أشد خطرا وأكبر إثما ، فقد أزهقت حربه أكثر من ثلاثين ألف شخص ، ولاتزال مستمرة منذ ديسمبر ١٩٩٤م وحتى الآن . وفطن بعد فوات الأوان إلى أن لهيب حرب الشيشان سوف تلتهم فرص فوزه فى انتخابات الرياسة فى يونيو (١٩٩٦م) ، فطرح للمناورة مبادرة للحل السلمى لكنها دخلت فى نفق مظلم ، وصعد الثوار هجماتهم ضد قوات يلتسن . ودبر أهل الكرملين حادث اغتيال جوهر لإطفاء نيران القتال وشل عزيمة الثوار . لكن أهل الجبل قرأوا فاتحة الكتاب على روح الإمام منصور فقد قتله الروس فى سجنه فى موسكو فى ذات الشهر إبريل الذى اغتالوا فيه جوهر .

وهكذا تؤكد الدراسات على اختلاف مصادرها قوة الصحوة الإسلامية المعاصرة التى تقودها بلاد الشيشان ، والمسيرة المظفرة لتلك الصحوة نحو ربط مسلمى بلاد القوقاز مع باقى المسلمين فى " دار الإسلام " ، وذلك بما يجدد الروح الإسلامية واستئناف رسالتها الخالدة فى خدمة الحضارة الإنسانية ، وما يكفل لها الطمأنينة والعزة والكرامة ، فى ظل التعاليم الإسلامية الحنيفية السمحاء .

الفهرس

ترقبوا...

فى العدد القادم

الصّوم

تربية وجهاد

الدكتور

محمدعبدالله دراز

من سلسة دراسات اسلامية

يصدرها المجلس الأعلى للشئون الاسلا

الثمن ٥٠ قرشاً

